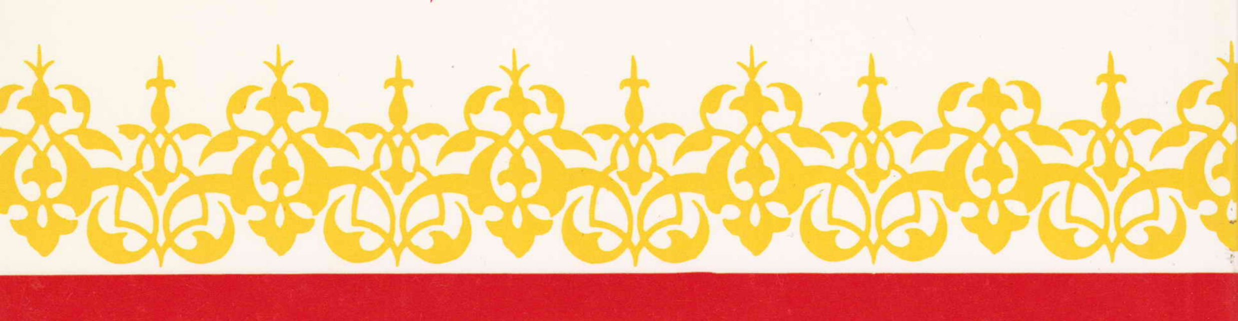
عزيز السيد جاسم



الاغتراب في حياة وشعر الشريف الرضي

دار الأندلس

الاغتراب
في حياة وشعر
الشريف الرضي



عزيز السيد جاسم

الاغتراب
في حياة وشعر
الشريف الرضي

دار الأندلس
للطباعة والنشر والتوزيع

دار الأندلس - بيروت ، لبنان
هاتف : ٣١٧١٦٢ - ٣١٦٤٠١ - ص.ب : ٤٥٥٣ ١١ - تلكس ٢٣٦٨٣

*«لو تعلمون ما في المسألة ما مشىٰ أحدٌ إلى أحدٍ يسألُ شيئاً».

(حديث نبوي)

*«يا دنيا إليكِ عني، غرّي غيري. إليَّ تعرَّضت أم إليَّ تشوَّفتِ؟.. هيهات.. قد باينْتُكِ ثلاثاً.. لا رجعةَ لي إليكِ.. فعمرُكِ قصير.. وخطَرُكِ حقير.. وخطبُكِ يسير.. آه من قلَّة الزاد، وطول الطريق، ووحشة السفر!!».

(علي بن أبي طالب)

*«فما لي طولَ الدهرِ أمشي كأنني لفضليَ في هذا الزمانِ غريبُ».

(الشريف الرضي)

(المدخل)

الشعر والإغتراب

إن فهم ثنائية الإغتراب في شعر الشريف الرضي يرتبط- بالضرورة- بالتشخيص القرآني للشعر والشعراء، والذي كان في جوهره حساً إسلامياً واضحاً لحقيقة الشعر بوجه الجاهلية والوثنيات الشائعة منذ عصور ما قبل الإسلام.

وقد كانت الإتجاهات الجاهلية ثقيلة الوطأة في التصدِّي للدعوة المحمدية العظيمة، وكان في مقدّمة الإفتراءات الجاهلية إنكار النبوَّة والرسالة المحمدية، والإدعاء أن الآي الكريم شعرٌ أو نوعٌ من الشعر، وأن النبيَّ الكريم شاعر.

وحيث أن المحيط العربي كان محيط شعر وشعراء فإن مجرد القول بشاعرية النبي العظيم كان يعني تخفيض قداسة الرسالة إلى مستوى الشعر الذائع في المحيط العربي، ولذلك كان ردُّ القرآن الكريم حازماً وصارماً:

﴿وما علَّمناه الشعرَ، وما ينبغي له، إنْ هو إلَّا ذكْرٌ وقرآنٌ مبين﴾(1).

و **﴿أمْ يقولون شاعرٌ نتربَّصُ به ريبَ المنون﴾**(2).

و **﴿وما هو بقولِ شاعرٍ، قليلاً ما تُؤْمِنون﴾**(3).

وفي سورة «الشعراء» عرض القرآن الكريم فهماً صائباً، عميقاً، شاملاً عن الشعراء، محدداً مكانة الشاعر في الهداية، أو في الغواية، وقيمته في الحالين، ذاكراً **﴿والشعراءُ يتبَّعهم الغاوون. ألمْ ترَ أنَّهم في كلِّ وادٍ يهيمون**

وأنّهم يقولون ما لا يفعلون. إلّا الذين آمنوا وعملوا الصالحات، وذكروا اللّه كثيراً، وانتصروا من بعدما ظُلموا﴾(٤).

إن القرآن الكريم في دفاعه التام عن النبوّة، والرسالة الإلهية، والتغيير الإجتماعي الشامل القائم على الإيمان الإلهي والعدل، قدَّم إدانة واضحة للشعراء الغواة، والمتقلبين، والمدَّاحين، والمتكسبين، والثرثارين، والذين يقولون ما لا يفعلون، مُنْهياً صورة الشاعر الجاهلي، القَبَلي، المتألِّه، المغرور، وداعياً إلى تبنيّ الصورة الحقيقية للشاعر، والتي استثناها بقوله ﴿. . . **إلّا الذين آمنوا وعملوا الصالحات، وذكروا اللّه كثيراً، وانتصروا من بعدما ظُلِموا. . .**﴾(٥).

من هذا المنطلق القرآني تأكدت الفكرة الجوهرية التي تنصُّ على علاقة الشعر بالإيمان، والتي يمكن إدراك مدى صدق الشاعر، وجدِّيته، أو حقيقيَّته بتعبير أدق.

وفي واقع الأمر أن العودة إلى المنطلق القرآني ضرورية تماماً، وخاصة بالنسبة إلى شاعر هو الشريف الرضي، المسلم أوّلاً، ومن سلالة النبي الكريم ثانياً إضافة إلى ذلك، أن المنطلق القرآني يقدِّم تصوُّراً شاملاً عن اغتراب الشاعر ومعاناته العجيبة، التي لا حل لها إلا في الإيمان، والإلتزام، والنظر بعين الحق.

فحيث يرتبط الشاعر بأسباب الحياة والمعيشة والعلاقات الإجتماعية، وهي أسباب مادية فإنه، شأن أي إنسان آخر، يخضع لقوانين الحياة، ومتطلبات العيش، والضرورات الإجتماعية، وحيث ينتمي الشاعر إلى الشعر فإنه يُحلِّق في فضاءات الأخيلة والرؤى بعيداً عن القوانين والعلل المادية للحياة.

وما من ضرورة، في أن يؤدي ذلك التناقض بين أسباب الحياة ودواعي

الشعر وسياحاته إلى الإزدواجية، ما دام الشاعر متمسكاً بيقينه الفكري، وهداه الروحي، إلا أن من المؤكد أن اغتراب الشاعر هو حقيقة كل شاعر بالنهاية.

إن مسار القدمين شيء، وهوى رأس الشاعر شيء آخر.

فهوى رأس الشاعر هو الذي يستصفي واقع الحياة على النحو الذي يتخيَّله. فهو يعيد رسم العالم بصورة شفافة، متنبئاً بالمستقبل، أو حالما بالجديد، وذلك- بالتحديد- هو ميدان تعريفه، ولقبه، وشهرته.

إثر ذلك، يبدو من الصعب رد الشاعر إلى الواقع المادي، بكل متشابكاته الأرضية التي لا تفسح المجال أمام الأخيلة والأحلام، إلَّا من خلال برزخ واحد، هو برزخ«القضية» التي يؤمن بها إن كان مؤمناً.

وفيما عدا القضية التي ينتسب إليها الشاعر، ويؤمن بها، فإن هواه هو الذي يقوده في عشرات الطرق، وشيطان شعره أقوى من عقله.

وقد انتبه أفلاطون إلى قداسة الشعر لدى الشاعر الحقيقي، فالشاعر كائن مقدس، مثير للإعجاب، يخلب الألباب، إلا أنه لا مكان له في جمهورية أفلاطون، ولا بد من إرساله إلى دولة أخرى مكرَّماً، معزَّزاً.

ويذكر أفلاطون ذلك قائلاً في المحاورات: «... الأمر الذي تختصُّ به دولتنا أن الاسكافي فيها إسكافي وليس ملَّاحاً وإسكافيًّاً في الوقت نفسه، والفلَّاح فلَّاح وليس قاضياً وفلَّاحاً في الوقت نفسه، ورجل الحرب رجل حرب، وليس تاجراً ورجل حرب في الوقت نفسه. وذلك هو شأن الجميع.

قال: هذا صحيح!

يبدو إذنْ أنه إذا مثل في دولتنا رجل بارع في اتخاذ جميع القوالب، وتقليد جميع المظاهر لينتج قصائده وينشدها للجمهور، فلنا أن نُثْني عليه كما

نفعل مع كائن مقدَّس، مثير للإعجاب، يخلب الألباب، ولكننا نقول له: ليس في دولتنا من يشبهه، ولا يمكن أن يكون فيها. ثم نرسله إلى دولة أخرى، بعد أن ننثر العطور على رأسه ونضفر له الأكاليل...»(٦)

لكن أفلاطون وهو يقصي الشاعر عن جمهوريته، يبعد في الوقت ذاته أنصاره، فالشعراء في حالات الوجد الشعري والإنخطاف، هم أقرب الناس إلى عالم المُثُل، وإلى المثالية الأفلاطونية. إلا أن خشيته من الشعراء ليست فلسفية بالدرجة الأولى، بل هي خشية تتصل بتنظيم المدينة الأفلاطونية، التي تحتاج إلى تلاحم العقول المفكرة مع الأيدي العاملة والمحاربة.

ورغم أن الشاعر يغتني من الحياة، وتتعمق تجربته في الصراع السياسي والإجتماعي والحياتي بعامة، إلا أن عالمه ليس العالم المادي للناس الآخرين، عندما يستولي عليه الشعر. بعبارة ثانية إن عالم الرؤى، والأخيلة، والأحلام، والتأملات، هو غير العالم الواقعي المعاش.

وفي العلاقة بين العالمين: المادي والرؤوي، يبدأ اغتراب الشاعر الذي لا يستطيع الشاعر -ذاته- التحكُّم بحدوده، مهما نضجت تجربته الشعرية، ومهما امتدَّت به خبرة الزمن. لأن أخيلة الشاعر الفتية، والمتجدِّدة لا تعترف بالزمن. وبطبيعة الحال إن الإغتراب الشعري والحياتي للشاعر يعود إلى عوامل ذاتية وموضوعية، وعوامل روحية ومادية متداخلة، كما أن قهر الإغتراب، كإمكانية، يرتبط -أيضاً- بسلسلة من العوامل الذاتية والإجتماعية والإقتصادية والثقافية.

ويمكن إجمال عوامل الإغتراب في عاملين متميزين:

الأول: الإغتراب الناجم عن طبيعة الشعر، لأن كل شعر هو تدفقات صورية، لا محدودة، وتخليقات شعورية ولا شعورية تأتي في لحظة غياب الشاعر عن واقعه الحسي.

فكل شعر- إذن- نوع من (العلوّ) المغترب في وقت الخلق الشعري.

أما العامل الثاني فهو يوحد جميع الظروف المادية والأسباب الشخصية والعامة المؤدية إلى الغربة والمعاناة الدائمة، وبلا شك، إن هذه الظروف والأسباب تلعب دوراً كبيراً في تغذية مضامين الشعر، وتحديد اتجاه الشعر، أو تغييره وتتداخل العوامل تداخلاً معقّداً، إلى الحد الذي تصبح فيه عملية فرز الأسباب الرئيسية عن الثانوية في تحديد نوع المؤثرات (المغرِّبة) من أشقِّ العمليات التحليلية. لأن نفس الشاعر المرهفة، والشديدة الحساسية، تكبر فيها الإنفعالات أو تصغر، خارج إمكانات القياس الإعتيادية. فأستجابات الشاعر، وردود فعله، ليست بالأمر الذي يسهل تعيين حدوده.

لذلك يمكن القول إن ثمة عوامل صغيرة جداً، أو غير معروفة، أو لا شعورية (غير معروفة حتى من قبل الشاعر نفسه) قد تكون محرِّضاً فعَّالاً في تقرير اختيارات الشاعر، وانتهاجاته السريعة أو طويلة الأمد.

ومن الثابت أن الأسباب اللاشعورية تسهم إسهاماً كبيراً في تكوين جانب كبير من جوانب العالم الشعري، سواء أكان ذلك في المضمون أو في الشكل.

ومع أن (الشعر) يأتي من (الشعور)، إلا أن (اللاشعور) يتعهد بصياغة أهم ما في الشعر، إذا ما فهمنا الشعر بمعناه الحقيقي كشعر!

والشاعر الرضي انموذج الشاعر المبدع الذي سقى زرعه بالإغتراب العميق، وبعيد الغور، والمتجذِّر في النفس، وفي الزمان، وفي المكان، وتبرز الغربة في شعره عبر مئات الصور الشعرية الحزينة، والرثائية، والبكائية، مثلما هي بارزة في حياته التي تقسَّمتها التعاسات.

ويعتبر منطلق الإغتراب، وأساسه العميق في نفسية وحياة وشعر السيد

الرضي ثنائي المجد والفجيعة، الذي اكتسب بعده التاريخي في قطاع طويل من المسلمين، هو قطاع الطالبيين، والذي أصبح بآمتداده عبر الحقب الزمنية ذا سمات ايديولوجية، واجتماعية راسخة.

ويقوم الثنائي المذكور على حقيقتين تنطويان على مفارقة مأساوية: الحقيقة الأولى مجد الشريف الرضي ، واسرته الذي ينطلق في الحسب والنسب من الإمام علي بن أبي طالب وأهل بيت النبي.

أما الحقيقة الثانية فهي مقاتل الطالبيين، والفجيعة الحسينية الكبرى.

وتكمن المفارقة الدامية في أن النسب المجيد، بدلاً من أن يقود إلى احتياز مكانة الحق والقيادة وتصريف أمور الناس من قبل سلالة أهل بيت النبي، فإنه قادهم إلى حتوفهم، وإلى مواضع الإضطهاد العاتي.

وشعر الشريف الرضي مليء بافتخار الحسب والنسب، فالنبي جدُّه، والإمام أمير المؤمنين علي بن أبي طالب والده.

فمن قوله يفتخر ويذمُّ الزمان في قصيدة مطلعها:

أتذكراني طلب الطَّوائلِ ... أيقظتما منيّ غيرَ غافلِ
قوما فقد مللتُ من إقامتي ... والبيدُ أولى بي من المعاقلِ
إنَ أمير المؤمنين والدي ... حزَّ الرقاب بالقضاء الفاصلِ
وجَدِّيَ النبيُّ في آبائه ... علا ذرىٰ العلياء والكواهلِ
فمن كأجدادي إذا نَسَبْتَني ... أم من كأحيائيَ أو قبائلي
مِنْ هاشمٍ أكرمَ من حجَّ ومن ... جلَّلَ بيتَ اللّه بِالوصائلِ
قوم لا يديهم على كل يدٍ ... فضلُ سجال من ردىً ونائلِ
فوارسُ الغارات لا يُطْرِبهُم ... إلا نوازي نغم الصواهلِ
أرى ملوكاً كالبهام غَفْلَةً ... في مثل طيش النْعمِ الجوافلِ (٧)

وقال وهو يفتخر بآبائه عموماً:

لنا الدولة الغرّاء ما زال عندها ... من الجور واقٍ أو من الظلم منصفُ
بعيدةُ صوتٍ في العلىٰ غير رافعٍ ... بها صوته المظلوم والمتحيّفُ
ونحن أعزُّ الناس شرقاً ومغرباً ... وأكرمُ أبصارٍ على الأرض تطرفُ
وكلٌّ محيًّا بالسلام معظّم ... كثير إليه الناظرُ المتشوِّفُ
وأبيض بسّام كأنّ جبينَه ... سنا قمرٍ أو بارقٌ متكشِّفُ
حَيِيٌّ فإنْ سيمَ الهوانَ رأيته ... يشدُّ ولا ماضي الغرارين مرهفُ
بنا الجبهات المستنيرات في العلىٰ ... إذا التثم الأقوامُ زلاًّ وأغدفوا
ومن قبلُ ما أبلىٰ ببدرٍ وغيرها ... ولا موقفٌ إلاّ له فيه موقفُ
ورِثْنا رسول اللّه عُلْويَّ مجده ... ومعظم ما ضمَّ الصفا والمعرَّفُ
وعند رجالٍ أن جُلَّ تراثه ... قضيبٌ مُحَلىً أو رداءٌ مُفَوَّفُ
يريدون أن نلقي إليهم أكفَّنا ... ومن دمنا أيديهمُ الدَّهرَ تَنْطِفُ
فللّه ما أقسىٰ ضمائرَ قومنا ... لقد جاوزوا حدَّ الحقوق وأسرفوا[٨]

ورغم أن القصيدة تصل إلى هدفٍ محدَّد يتعلق بوالده السيد (أبي أحمد الموسوي)، إلاّ أن الإبتداء الفخاري بالحسب والنسب واللقب وبالتاج النبوي الأكبر، سرعان ما يتدَّرج إلى لازمته الضرورية التي لا مناص منها، وهي التفجُّع، ومرارة التأسي.

ومن الناحية التاريخية، إن الطعنة الغادرة التي أنهت حياة الدنيا لعلي ابن أبي طالب كانت قد وضعت أهل البيت في نقطة المفترق، في حين جاء استشهاد الحسين بن علي يوم الجمعة العاشر من المحرم سنة إحدى وستين ذروة المأساة، التي تتردد صيحتها بين جنبات العالم الإسلامي بهدير لم يهدأ أبداً بل في ازدياد.

وإذا ما كان التفجع لاستشهاد الحسين تظاهرة تاريخية كبرى يشترك

فيها ملايين المسلمين، ويشاركهم العزاء العديد من غير المسلمين، فكيف الحال والشريف الرضي من أحفاد الحسين، وهو: أبو الحسن، الشريف الأجلُّ، الملقَّب بالرضي، ذو الحسبين، محمد بن الحسين (أو محمد بن أبي أحمد) بن موسى بن محمد بن موسى بن ابراهيم بن موسى الكاظم بن جعفر الصادق بن محمد الباقر بن علي زين العابدين بن الحسين بن علي بن أبي طالب.

لقد جاء اغتراب الشريف الرضي وغربته من الفجيعة الأليمة، والمأساة التي لا مثيل لها، من تلك البداية الجليلة، في يوم عاشوراء، حينما استشهد الحسين، ومعه الكوكبة الطاهرة من شهداء أهل البيت: العباس، وجعفر، وعثمان، ومحمد، وأبو بكر (أولاد علي بن أبي طالب)، وعلي، وعبد الله (ولدا الحسين)، وأبو بكر، وعبد الله، والقاسم (أولاد الحسن)، وعون الأكبر ومحمد (ولدا عبد الله بن جعفر)، وجعفر وعبد الرحمن، وعبد الله، ومسلم (أولاد عقيل بن أبي طالب)، وعبد الله بن مسلم بن عقيل، ومحمد بن أبي سعيد بن عقيل.

لقد جرى قتل أهل بيت الرسول بأيدي أناس كانوا يدَّعون الإسلام، وهذا ما أعطى للمأساة بعداً فجائعياً لم يتكرّر في التاريخ.

فلم يروِ أحدٌ في جميع مراحل التاريخ أن بشراً يقتلون أهل بيت نبيهم، وبآسم خلافة الدين (!) إلَّا في مناسبة واحدة هي ملحمة عاشوراء.

كان النبي يقول: «استوصوا بأهل بيتي خيراً، فإني أخاصمكم عنهم غداً، ومن أكنْ خصمَه أخْصِمْه، ومن أخْصِمْه دخل النار» (٩).

وكان يقول: «أما بعد، ألا أيها الناس، فإنما أنا بشرٌ يوشك أن يأتي رسول ربي فأُجيب، وأنا تاركٌ فيكم ثقلين: أولهما كتاب الله: فيه الهدى والنور. فخذوا بكتاب الله، وآستمسكوا به. ثمَّ أهل بيتي... أُذكِّركم الله

في أهل بيتي . . أُذكِّركم الله في أهل بيتي . . أُذكِّركم في أهل بيتي»[١٠].

وكانت أحداث عاشوراء أكبر من خيانة (نبي)، لأنها كانت محاولة لإمحاء ذُرِّيَّة النبي، لكن الله أحبط مساعي الظالمين، فجعل البلاء الذي مر به أهل البيت قوة للدين، ونصرة لأفكار الشهداء الخالدين، وإنما البلاء على قدر صدق الصادقين. وفي حديث نبوي: «أشدُّ الناس بلاءً الأنبياء ثم الأمثل فالأمثل، يبتلي المرء على حسب دينه، فإن كان في دينه صلباً آشتدَّ بلاؤه، وإن كان في دينه رقة آبتليَ على قدر دينه، فما يبرح البلاء بالعبد حتى يتركه يمشي على الأرض وما عليه خطيئة»[١١][*].

ومثلما توارثت سلالة الحسين العلم والمناقب الشريفة، فإنها توارثت الشعور المتجدد بقوة النكبة، فأفرد الشريف الرضي غرراً من القصائد في رثاء أبي عبد الله الحسين بن علي، ومنها رثائية عاشوراء سنة ٣٨٧:

راحلٌ أنتَ والليالي تزولُ ... ومضِرٌّ بك البقاء الطويلُ
لا شجاعٌ يبقى فيعتنق البيـ ... ـض ولا آملٌ ولا مأمولُ
غاية الناس في الزمان فناءٌ ... وكذا غاية الغصون الذبولُ
إنَّما المرء للمنيَّة مخبو ... ءٌ وللطعن تستجمُّ الخيولُ
من مقيلٍ بين الضلوع إلى طو ... ل عناءٍ وفي التراب مقيلُ
فهو كالغيم ألَّفته جَنوبٌ ... يوم دجْنٍ ومزَّقته قَبولُ
عادة للزمان في كلِّ يومٍ ... يتناءى خلٌّ وتبكي طلولُ
فالليالي عونٌ عليكَ مع البيْـ ... ـنِ كما ساعد الذوابلَ طولُ
ربَّما وافق الفتى من زمانٍ ... فرحٍ غيره به متبولُ
هيَ دنْيا إنْ واصلتْ ذا جَفَتْ هـ ... ـذا ملالاً كأنَّها عُطْبولُ[١٢]
كلُّ باكٍ يُبْكى عليه وإنْ طا ... لَ بقاءٌ والثاكلُ المثكولُ
والأمانيُّ حسرةٌ وعناءٌ ... للذي ظنَّ أنها تعليلُ

مـا يبـالي الحـمام أين تـرقَّى بعـدما غـالت آبن فـاطمَ غـولُ
أي يـوم ٍ أدمى المـدامـع فيـه حـادثٌ رائـعٌ وخـطبٌ جليـلُ
يـوم عاشـوراء الذي لا أعـان الـ ـصحب فيـه ولا أجـار القبيـلُ
يا آبن بنت الرسول ضيِّعتِ العهْـ ـدَ رجـالٌ والحـافـظون قليـلُ
مـا أطاعـوا النبيَّ فيـك وقـد مـا لت بأرماحهم إليكَ الذحـولُ(١٣)
وأحـالـوا عـلى المقـاديـر في حرْ بِـكَ لـو أنَّ عـذرهم مقبـولُ
وآستقـالوا من بعـدما أجلبـوا فيـ ـهـا أَاْلآن أيُّهـا المسـتـقيـلُ
إنَّ أمـر قنعتَ من دونـه السيْـ ـف لمـن حـازه لمـرعىً وبيـلُ
يـا حسـامـاً فلَّتْ مضـاربُـه الهـا مَ وقـد فلَّه الحسـامُ الصقيـلُ
يـا جواداً أدمى الجـواد من الطعْـ ـنِ وولَّى ونـحـرُه مـبـلولُ
حجـل الخيل من دمـاء الأعـادي يـوم يبـدو طعنٌ وتخفى حجـولُ
يوم طاحت أيدي السوابق في النقْـ ـع ِ وفاض الونى وغـاض الصهيلُ
أتـراني أُعـير وجـهي صـونـاً وعـلى وجـهـه تجـول الخيـولُ
أتـراني ألـذُّ مـاءً ولـمَّـا يـروَ من مهجة الإمـام ِ الغليـلُ
قبَّلتـه الـرمـاح وآنتضلت فيـ ـه المنـايا وعـانقتـه الفصـولُ
والسبـايا عـلى النجـائب تستـا قُ وقـد نـالت الجيـوب الـذيـولُ
من قلوبٍ يدمى بها نـاظر الـوجـ ـدِ ومن أدمـع ٍ مراهـا الهمـولُ
قـد سلبن القنـاع عن كـلِّ وجـهٍ فيـه للصـون من قنـاع ٍ بـديـلُ
وتـنـقَّبْـنَ بـالأنـامـل والـدمْـ ـعُ عـلى كلِّ ذي نقـابٍ دليـلُ
وتـشـاكـين والشـكـاة بـكـاءٌ وتـنـاديـن والـنـداء عـويـلُ
يـا غريب الـديار صبري غريبٌ وقتيـل الأعـداء نـومي ثقيـلُ
بي نـزاعٌ يـطغى إليـك وشـوقٌ وغـرامٌ وزفـرةٌ وعـويـلُ
ليت أني ضجيـع قبـركَ أو أنْـ ـنَ ثـراه بمـدمـعي مـطلولُ
لا أغبَّ الـطفـوف في كـلِّ يـوم ٍ من طـراق الأنـواء غيث هـطولُ

مطرٌ ناعمٌ وريحٌ شمالٌ ونسيمٌ غضٌّ وظلٌّ ظليلُ
يا بني أحمدٍ إلى كم سناني غائبٌ عن طعانه ممطولُ
وجيادي مربوطةٌ والمطايا ومقامي يروع عنه الدخيلُ
كم إلى كم تعلو الطغاة وكم يحـ ـكم في كلِّ فاضلٍ مفضولُ[١٤]

***

إن نداء الشريف الرضي الذي امتدَّ حرف النداء فيه (يا) مع المنادى (الغريب) إلى ما لا محطة له، ولا نهاية، عبر الزمن، هو الصوت الذي يسكن أعماقه الموحشة، ويركب لسانه الذي لا يكف عن اللهج والتحسس، فتظلُّ المناداة الصارخة: يا غريب الديار صبري عجيبٌ مدخلاً لتفسير إغتراب الشاعر وغربته التي تتجاوز في المعنى كل شقاء.

ذو التعاستين

ورث الشريف الرضي في روحه ودمه روح الفجيعة الحسينية، لكن الدهر لم يترفق به في حدود ذلك، بل أدخر له أمراً عظيماً وتعاستين بالغتين:

الأولى سجن أبيه الذي كان سنده الكبير والشخصية العظيمة التي حملت قبساً من نور أهل البيت وحكمتهم وعدالتهم.

لقد: «كان أبوه النقيب أبو أحمد، جليل القدر، عظيم المنزلة في دولة بني العباس ودولة بين بويه، ولقب بالطاهر ذي المناقب، وخاطبه بهاء الدولة أبو نصر بن بويه بالطاهر الأوحد، ووليِّ نقابة الطالبيين خمس دفعات، كما وُلِّيَ النظر في المظالم، وحجَّ بالناس مراراً. أميراً على الموسم»[١٥]. لقد كان الشريف الرضي في العاشرة من عمره، حينما سجنه عضد الدولة، ففقد بذلك وليَّ الأمر، والسند، والنصير، ولم يكن أبوه مجرد أب، بل كان يرى فيه تجسيداً لموضوع فخاره وافتخاره، وكان يعلق الآمال على أن يحتاز أبوه المكانة التي يستحقها، والتي لا تقل شأناً

عن الخلافة. وقد كانت آمال الصبا كبيرة وملوَّنة، حينما كان أبوه سيِّداً مطاعاً، ومصلحاً كبيراً، وبسجنه تطايرت الآمال وخيَّمت ظلمة الأسى على روح الشريف الرضي.

- لقد كان الإغتراب التاريخي الذي ورثه الشاعر يحثّ على الثورة، وقبل أن يبلغ الشباب كان يحتاج إلى حماية ورعاية وجدهما في أبيه، وفي لحظة واحدة وجد الشاعر نفسه أمام الحقيقة القاسية، سجن أبيه وعمه، وتهدَّم بناء الحماية والعز في لحظة غريبة.

وفي ذلك يقول زكي مبارك: «وما ظنكم بطفل يتوقَّد غيرةً وحماسةً، ويقبل على الدرس إقبال الرجال، فيصل النهار بالليل في درس العلوم العقلية والنقلية، ويأوي إلى بيت عامر بالكرم والجود تعجُّ أرجاؤه بأصوات الخدم والحاشية، ويرى أباه في الصباح والمساء وهو عماد المكروبين، وغياث الملهوفين، ويرى أساتذته يبالغون في إكرامه لأنه ابن النقيب، ما ظنكم بطفل هذه أحواله يمسي بعافية ثم يصبح فيرى ذاهل العقل أن أباه جُرِّد من الحول والطول وأُلقيَ به في غياهب الإعتقال»(١٦).

ويضيف: «إن من العسير أن تتصوروا النبوغ الشعري في طفل غرير، لأنكم تعيشون في أزمان لا تعرف الشقاء، أزمان يكون فيها من النبوغ أن يحفظ الطفل قصيدة وهو ابن عشر سنين، ولكن يسهل عليكم تخيُّل ذلك حين تتذكرون كيف كان حل الشريف الرضي حين نُقِل أبوه منفيَّاً إلى فارس، حين تتصورون كيف أمسى ذلك الطفل فقيراً ذليلاً بعد الغنى والعزة، حتى صح لبعض أساتذته أن يهبه داراً يسكنها!

وما أظلم الأيام التي تُحْوج طفلاً مثل الشريف إلى قبول هذه الهدية بعد تمنع وإباء. تصوروا حال الشريف وهو يحاور أستاذه فيقول: لم أقبل بِرَّ أبي

فكيف أقبل بِرَّك؟! فيجيب الأستاذ وهو يتوسَل إليه: إن حقي عليك أعظم من حق أبيك، لأني حفَّظتك كتاب الله تعالى فقَبِلها».

إن فترة سجن السيد أبي أحمد الموسوي في قلعة فارس امتدَّت من سنة ٣٦٩ إلى سنة ٣٧٦ وانت التعاسة الأولى التي أجَّجت كل ما هو كامن من شعور فجائعي، وتمردي في نفس الرضيّ، وأضيف إليها التعاسة الثانية وهي مصادرة أملاك والده وتعريض العائلة للعوز والحرمان.

ولعلّ إهداء الدار إليه من قبل أستاذه ابراهيم بن أحمد الطبري خير بلاغ عن الفاقة التي آل إليها الشريف الرضي، على ما عرف عليه الشاعر من إباء، وترفع، وكبرياء رافقته منذ الصغر، ولم تَخِنْهُ على الكبر. وفي ذلك يقول ابن أبي الحديد: «أما ترفُّع الشريف وأَنَفَتُه وارتفاعه فوق المطامح المادية فمشهور، وقد عرف عنه أنه لم يقبل هدية من أحد»(١٧). ولم ينس الشريف الرضي استفزاز المطهر بن عبد الله وزير عضد الدولة لوالده حين القبض عليه، إذ قال له: «كم تدلُّ علينا بالعظام النخرة» مستهيناً بذلك بالسلالة الطاهرة الشريفة، وأصلها الكريم. وقد كان للإهانة طعم خارق، لاذع، لم يتمكن الشاعر من نسيانه أبداً.

وتفعل المأساة فعلها الكبير في نفس الشاعر، وسنه فوق العاشر بقليل، فيذكر أباه في قصيدة يقول فيها:

نصافي المعالي والزمان معانِدُ ... وننهض بالآمال والجدُّ قاعدُ
تمرُّ بنا الأيام غير رواجعٍ ... كما صافحت مرَّ السيول الجلامدُ
وتمكننا من مائها كل مزنة ... وتمنعنا فضل السحاب المزاود
وما مرضت لي في المطالب هِمَّةً ... وأحداثه في كلِّ يومٍ عوائدُ
عوائدُ هَمٍّ لا يحيين غبطةً ... بهنَّ ولا تُلقى لهنَّ الوسائدُ
ولله ليلٌ يملأ القلبَ هولُه ... وقد قلقتْ بالنائمين المراقدُ(١٨)

وتعزّ فما كل المصائب قادمٌ عليك ولا كل النوائب عائدُ
ينال الفتى من دهره قدر نفسه وتأتي على قدر الرجال المكايدُ
فدىً لك يا مجد المعالي وبأسها فعال جبان شجَّعته الحقائدُ
فما تركت منك الصوارم والقنا ولا أخذت منك الحسان الخرائدُ
عزلت ولكن ما عزلت عن الندى وجودك في جيد العلى لك شاهد
بوجهك ماء العز في العزل ذائب ووجه الذي ولى من الماء جامد
فأنت ترجّي الملك وهو زواله بغير جلادٍ فيه وهو مجالدُ
فلا يفرح الأعداء فالعزل معرضٌ إذا راح عنه صادرٌ جاء واردُ
وما كنت إلّا السيف يمضي ذبابُه ولا ينصر العلياء من لا يجالدُ(١٩)

ثم يحمل على المستفزّ الشاتم وزير عضد الدولة:

يدلُّ بغير الله عضداً وناصراً وناصرُك الرحمن والمجد عاضدُ
تعيّر ربَّ الخير بالي عظامه ألا نزهتْ تلك العظام البوائدُ
ولكن رأى سبَّ النبيِّ غنيمةً وما حوله إلّا مريبٌ وجاحدُ
ولو كان بين الفاطميين رفرفتْ عليه العوالي والظبي والسواعدُ(٢٠)

إن جرح الاهانة أثار فيه سخطاً على الدولة ووزيرها، ولذلك انطلق التحدِّي شعراً، و«عرَّض بالخليفة العباسي، ولوَّح له بعظمة الفاطميين في مصر، وكان ذلك يومئذ من المحظورات»(٢١).

وأضاف في قصيدته:

وما والد مثل ابن موسى لمولد قريب تجافاه الرجال الأباعدُ
حمى الحج واحتلَّ المظالم رتبةً على أن ريعان النقابة زائدُ
فأقبل والدنيا مشوقٌ وشايقٌ وأعرض والدنيا طريدٌ وطاردُ
وساعده يوم استقلَّ ركابه أخوه وقال البين نعم المساعدُ
هما صبرا والحق يركب رأسه عشيِّة زالت بالفروع القواعدُ

تفـرَّد بـالعليـاء عن أهـل بيتـه   وكلٌّ يهـاديـه إلى المجـد والـدُ
وتختلفُ الآمـال في ثـمـراتهـا   إذا أشرقت بـالري والمـاء واحـدُ

إن حب الشاعر لأبيـه تجسيد مكثف لعـدة أشكال ودرجـات من الحب، فهو حب الابن للأب، وحب التلميـذ للأستـاذ، وحب المؤمن بزعـامة الـزعيم للزعيم، وحب الـذات للأنمـوذج الذي تسعى إلى أن تسير على هـداه وتكـون بصورته. ففي قرارة نفس الشريف الرضي ترعرع طموح مشروع في أن يكون زعيماً كأبيه.

فتفتق الحب عن أكثر من أربعين قصيدة مدح لأبيه.

ويشير زكي مبارك إلى أن أشعار الشريف الرضي في مـدح أبيه تنقسم إلى ثلاث طوائف: «الطائفة الأولى في التوجع لأبيه وهو سجين، والطائفة الثانية في تهنئة أبيه بالخلاص وردّ أملاكه إليه، والطائفة الثالثة في تهنئته بـالأعياد بعـد أن لان الزمان. ولكل طائفة من هذه الأشعـار خصائص: فـالطائفـة الأولى تصور الحزن والجزع والتفجـع، والثانيـة يغلب عليها الابتسـام ولكنها تفيض بـالسم الزعاف في الثورة على الناس، والثالثـة تخلع على أبيـه رداء الملوك. فهو يـدخل عليه في كل عيد بقصيدة كما يصنع الشعراء في تحية الخلفاء والملوك»(٢٢).

إن حب الشريف الرضي لوالده كان انتماءً عظيماً للأب وللقضية وللنفس في آن واحد.

وحينما اطلق سراح والده (وسعه عمه)، وقدم من فارس إلى بغـداد، فإن روح الشاعر كانت ترافق الوالد في عودته مرحلة مرحلة، ولكل مرحلة كان يُعِدُّ لهـا شعراً وكلمات. وذلـك يدلـل عـلى الغصص التي حبست في صـدره، والتي أخذ يطلقها حيناً بعد حين، مع مسيرة عودة أبيه من المنفى والسجن.

فمثلاً هناك قصيدة وجهها إلى أبيه وأنفذها إليه قبـل دخولـه بغداد بـأيام يسيرة على يد بعض أصحابه، «فهو كان يعرف معنى التحيـة، تحية الـراجع إلى

وطنه وهو في الطريق، كما نرسل برقيات التحية في هذه الأيام ليفرح بها القادمون وهم على متون البواخر، وهذه القصيدة ليست من الطوال، ولكنها على قصرها تصور شوقه إلى أبيه وهو نبتٌ ضعيف، ويشير إلى ما صنعت به الأيام، فيقول في آخر القصيدة:

لَّما ذكرتُكَ عاد قلبي شوقُهُ ... فبكينَ عنه مدامعُ الأقلامِ
خلَّفْتني زرعاً فطُلْتُ وإنما ... ذاك الغرار نمى إلى الصمصامِ
أكْدَتْ عليَّ الأرضُ من أطرافها ... وتدرَّعت بمدارع الإظلامِ
وعهدْتها خضراء كيف لقيتها ... أبصرتَ فيها مسرحاً لسوامي
أشكو وأكتم بعض ما أنا واجدٌ ... فأعاف أن أشكو من الإعدام[٢٣]

وعندما وصل أبوه، ذلك الأمير الحقيقي، والذي شمخت صورته في حلم الرضي، كانت الصعقة الوجدانية كبيرة، فقد رأى الشاعر أباه العملاق، لكن بأية صورة؟!

«رآه شاحب اللون، هزيل الجسم، قد نالت ظلمات الاعتقال منه»[٢٤]، و«لا يعلم إلّا الله كيف خفق قلب ذلك الفتى حين رأى أباه، فقد كان لا يزال طفلًا، وكانت المعاني السود والبيض تلذع قلبه لذعاً عنيفاً، والعواطف العاصفة لا يعرفها غير الأطفال»[٢٥].

فكانت قصيدة الاستقبال مشوبةً بكل الانفعالات المتعارضة:

طلوعُ هداه إلينا المغيبُ ... ويومٌ تمزَّق عنه الخطوبُ
لقيتكَ في صدره شاحباً ... ومن حِلْية العربيِّ الشحوبُ
إليه تحجُّ النفوس الصدور ... وفيه تُهَنِّي العيونَ القلوبُ
تعزَّيْتَ مستأنساً بالعبا ... دِ والليثُ في كل أرضٍ غريبُ
وأحرزتَ صبرك للنائبات ... وللداء يوماً يرادُ الطبيبُ
لحا الله يوماً أرانا الديا ... رَ يندبُ فيها البعيدَ القريبُ

وما كان موتاً ولكنَّه فراقٌ تُشَقُّ عليه الجيوبُ
لئن كنتَ لم تستربْ بالزمان فقد كان من فعله ما يريبُ
رمى بك والأمر ذاوي النبات فآل وغصن المعالي رطيبُ
ولما جذبتَ زمام الزمان أطاع ولكن عصياك الجبيبُ
ولما استطال عليك الزمام وذلّل فيك المطيَّ اللغوبُ
رجوت البعاد على أنه كفيل طلوع البدور الغروبُ
رحلتَ وفي كل جفن دمٌ عليك وفي كل قلبٍ وجيبُ
ولا نُطْقَ إلّا ومن دونه عزاءٌ يغور ودمعٌ ربيبُ
وأنت تعلِّلنا بالإيا ب والصبر مرتحِلٌ لا يؤوبُ
وسرَّ العدا فيك نقص العقول وأعلم أن لا يسرَّ اللبيبُ
أما عَلِمَ الحاسدُ المستغرُّ أن الزمان عليه رقيبُ
قدمتَ قدومَ رقاق السحا بِ تخطر والربع ربعٌ جديبُ
فما ضحك الدهر إلا إليـ ـك مذ بان في حاجبيه القطوبُ

إن الإلم في حياة الرضي، والذي يعكسه شعره بجلاء تام، أصبح أكثر من حالات نفسية حزينة، بسبب حوادث مؤلمة، لقد أصبح خبرة متميزة، لها خطوطها الطويلة والعريضة، وجذورها العميقة، وآثارها البارزة.

ورغم الأوقات السعيدة التي كانت تعقب فترات العناء والشدة والحزن الممض، فقد أصبحت للألم في حياة الشريف الرضي فلسفة متناثرة في شعره.

ولم تكن أوقات الفرح بقادرة على خداعه، مع أنه لا يخفي سعادته، وكانت فرصة رد الأعمال القديمة إلى والده وهي النقابة وإمارة الحج والنظر في المظالم، وذلك في جمادي الأولى سنة ٣٨٠ مناسبة لتهنئة والده وإبداء الفرحة، فقال:

انظرْ إلى الأيام كيف تعودُ وإلى المعالي الغُرِّ كيف تزيدُ

وإلى الـزمان نبـا وعـاود عـطفـه فـارتـاح ظمـآنٌ وأورق عـودُ
قـد عـاود الأيـام مـاء شبـابها فـالعيش غضٌّ والليـالي غيـدُ

لكن الحكمـة المبثوثـة في أبيات القصيـدة، هي نتاج الألم وخـبرته، وهي التعبـير عن النهج النقـدي المـريـر الـذي لازم شعـر الشريف الـرضي، وزوَّده بعناصر الثورة، لذلك فهو يذكر:

مـا السؤدد المـطلوب إلا دون مـا يـرمـي إليـه الـسؤدد المـولـودُ
فـإذا هما اتفـقـا تكسَّرت الـقنـا إنْ غـالبـاً وتضعضـع الجلمـودُ
وأجلُّ ما ضرب الـرجال بحـدِّه الـ أعـداء مجـدُ طـارفٌ وتـليـدُ

وبلا شك أن طـريق السؤدد المولـود مليءُ بـالأحزان، والمتـاعب، وهي أكبر بكثير من مشقات وتضحيات السؤدد المـطلوب، بمعنى أن الآلام القادمـة والتي تنتـظر حياة الشـاعر هي قـدره المحتوم، ومـا دام غير قـانع بـالمكـاسب المحدودة، فهو مقتنع بالعذاب الذي لا بد منه.

إن التعاسات أفضت بالشريف الرضي إلى اغتراب يتفجر حكمـة وبعد نظر.

الإغتراب الروحي في حياة وشعر الشريف الرضي

إن العناصر الأساسية المكونـة للإغـتراب الروحي في التجـربة الحيـاتية والشعرية للشريف الرضي هي أولاً: الأصل الفجـائعي للسلالة الهـاشمية، وأهل بيت النبي بالذات، والذي يشكل خلفية تاريخية مـأساويـة تهطل منهـا معـطيات أدبيـة وفلسفية في البـلاء، والعـزاء، والإصرار الـدائم عـلى تلمس الجذور الدامية للمأساة.

وتشاء الخلفية التاريخية هذه أن تكون تأثيراتها قبل الولادة، لأنها تجري في الدم وفي حركة الأعصاب، وفي الموروثات العضوية، قبل التوارث الروحي والثقافي الذي تنقله الطقوس والتقاليد الدينية والإجتماعية.

ثانيا: الزهد والمعرفة الدينية، وهما من سمات السلالة ومن إرثهما المنقول من الآباء إلى الأبناء.

وقد بينت صحف التاريخ الإسلامي أن آباء وأجداد الشريف الرضي كانوا أوعية للعلم والمعرفة الربانية، وكانوا زهّاداً، عابدين، قانتين، شغلتهم مناجاة اللّه عن المطامع الدنيوية الرخيصة، ولم يكن لأحدهم إعراضاً عن حقهم في السعي من أجل نشر العدل في الحياة الدنيا، بل هو تعبير عن وحدة ذلك الحق مع الفقر، لأن العدل لا ينشأ إلا من القاع الإجتماعي، والبساطة، والتواضع، ورفض الثراء والجاه والغرور الزائف.

ومما زاد ويزيد في زهد العارفين، القانتين، والأئمة الأعلام، الطهورين، تفاقم الفساد والإحتيال والغدر، وهدر الأخلاق، وسيادة منطق القوة والقهر والإبتزاز والإرشاء، وكل المباذل التي تهوي بالمجتمع إلى الحضيض. فكلما تزداد كفة الميزان ميلان لصالح الفساد، فإن العلماء يزدادون زهداً واحتماءً بالدين والقيم الروحية.

وفي عصر الشريف الرضي، تعرض الوجود القومي العربي، إلى مؤثرات فارسية قوية، فكان البويهيون يسوسون الأمور بأهوائهم ونزعاتهم الطائشة، فيصادرون ويعزلون ويولون، ويقطعون الإقطاعات الواسعة لمن يشاؤون، فكانوا عاملاً مباشراً في سوء توزيع الثروة، أدى إلى تفاوت طبقي فاحش، وأوجد طبقة ممعنة في الترف والنعيم وطلب المسرات والخروج بها إلى حد الشذوذ، ولعل من أسباب ذلك أيضاً، ما طرأ على هذا العصر من ضعف الوازع الديني، ومن فساد الأسرة بسبب الإختلاط والتزاوج، وبسبب

كثرة القيان وإباحة المنكرات، والتعلق بمظاهر الحياة المادية تعلقاً شديداً مفرطاً. فقد رأى هذا العصر سيلاً هائلاً من العناصر الدخيلة، كما نشطت فيه تجارة الرقيق، كل ذلك ساعد على الإنحلال الإجتماعي، بحيث صارت محلات القيان والغلمان أمراً معتاداً يتردد عليها الناس، ويرتادها الكثيرون، وتطرح فيها الحشمة[٢٦]. وكانت مجالس الأشراف والوزراء «تألف هذا النوع من الحياة التي أصبح فيها المجون والخلاعة نوعاً من الترف الحضاري، والتظرُّف الإجتماعي»[٢٧].

و«يُحْكَى أنه كان في جملة القضاة الذين ينادمون الوزير المهلبي ويجتمعون عنده في الأسبوع ليلتين على اطِّراح الحشمة، والتبسط في القصف والخلاعة وهم: ابن قريعة، وابن معروف، والقاضي التنوخي، وغيرهم وما منهم إلا أبيض اللحية طويلها، وكذلك كان الوزير المهلبي، فإذا تكامل الأنس، وطاب المجلس، ولذَّ السماع، وأخذ الطرب منهم مأخذه وهبوا ثوب الوقار للعقار، وتقلبوا في أعطاف العيش، بين الخفة والطيش، ووضع في يد كل واحد منهم كأس ذهب من ألف مثقال إلى ما دونها، مملوءاً شراباً قُطْربُلياً، أو شراباً عُكْبُرِيّاً، فيغمس لحيته فيه، بل ينقعها حتى تتشرَّب أكثره، ويرش بها بعضهم على بعض، ويرقصون أجمعهم، وعليهم المصبغات، ومخانق البرم»[٢٨].

وكان الوجه الآخر للترف والمجون انتشار البؤس والفاقة، في القاعدة الإجتماعية العريضة، وعيش العلماء البعيدين عن السلطة في حرمان وفاقة. فكان أن هجر بغداد ـ مثلاً ـ أديبها الكبير، وفقيهها الشهير، عبد الوهاب المالكي، وقذف في وجه عصره بأشنع وصمة، وهو يقول لمودِّعيه: «لو وجدت بين ظهرانيكم رغيفين كل غداة وعشية، ما عدلت عن بلدكم لبلوغ أمنيَّة»[٢٩].

بل إنَّ الوزير المهلبي الشاعر المترف، كان قبل اتصاله بالسلطان يشكو القلة، ويقاسي الحرمان مثل غيره من أبناء السواد الأعظم في عصره، فاشتهى اللحم ذات يوم، فلم يجده، فارتجل الأبيات التالية:

ألا مـوتٌ يبـاعُ فـأشـتريـهِ فهـذا العيش ما لا خـيرَ فيـهِ
ألا مـوتٌ لـذيـذُ الطَّعْمِ يأتي يخلِّصُني من العيشِ الكـريـهِ
إذا أبصـرتُ قبـراً من بعيـدٍ ودِدْتُ لـو أنـني مما يـليـهِ
ألا رحـمَ المهيمـنُ نفسَ حُـرٍّ تصـدَّقَ بالـوفاة عـلى أخيـهِ(٣٠)

إن آجتماع الفقرِ والفسادِ الأخلاقيّ والثراء الفاحش خلق وسطاً صالحاً للتأثيرات المنافية للدين الإسلامي وللتقاليد العربية الإسلاميـة، وكانت هـذه التـأثيرات أدوات الأقـوام والدول المعـادية للعـرب في إثـارة البلبلة في الصف العربي، وتهيئة أجواء الفتنة التي مهَّدت للحروب المتتالية ضد العرب.

فكـان الزهـد موقف الـرفض التام لـلإنحـرافـات الشـاذة التي طعنت الإسلام والعروبة في الصميم. وكان على مراتب ودرجات. وهي في مجموعها تهتـدي بسلوك النبي الكريم المعـروف بزهـده وتقشفـه. وقـد كـان الحـديث النبوي: «اعملْ لدنياك كـأنَّك تعيش أبـداً، وآعملْ لآخـرتك كـأنَّك تمـوت غداً» هو المقيـاس الذي حـدده الإسلام، وهـو «التقوى عـلى أساس العمـل للدارين لا تقـوى المترهبـين المستغرقـين في التـأمـل والعبـادة. وقـد اسـتـطاع الإسلام أن يحقق المثل الأعلى الذي صوره نظريـاً للشخصية المسلمـة. فتجلّى في كثـير من صحابـة رسول اللَّه ﷺ ذلـك الطراز العـامل لـدنياه وآخـرتـه، المتعاون في سبيل خلق الحياة الصالحة لأفراد مجتمعه»(٣١).

وقد استلهم الشريف الرضي نظرته إلى الدنيا من القرآن الكريم: ﴿يـا أيُّها الناسُ آتَّقُوا ربَّكم وآخشَوْا يوماً لا يجـزي والدٌ عن ولـده، ولا مولـودٌ هو جازٍ عن والده شيئاً. إنَّ وعدَ اللَّه حقٌّ فلا تغُرَّنَّكُم الحيـاة الدنيـا ولا يَغُرَّنَّكُم

بالله الغَرور﴾[٣٢].

فقال الرضي في شعره:

ما لي إلى الدنيا الغَرورة حاجةٌ فَلْيَخْزَ ساحرُ كيدها النفَّاثُ
طلَّقتها ألفاً لأحسمَ داءها وطلاقُ من عزم الطلاقَ ثلاثُ
سكناتُها محذورةٌ وعهودُها منقوضةٌ وحبالُها أنْكَاثُ
أُمُّ المصائب لا يزال يروعنا منها ذكور نوائب وإنشاثُ
إنِّي لأعجَبُ من رجالٍ أمسكوا بحبائل الدنيا وهنَّ رِثَاثُ
كنزوا الكنوز وأغفلوا شهواتهم فالأرضُ تشبع والبطون غراثُ
أَتُراهمُ لم يعلموا أن التقى أزوادنا وديارنا الأجداثُ[٣٣]

أما ثالث العناصر المكونة للإغتراب الروحي للشريف الرضي فهو تفوقه العقلي، وتمتعه بمؤهلات ومزايا شخصية كبيرة تتناسب مع دوره الطليعي ورسالته الدينية والإجتماعية.

وقد تجلت الجدارات العقلية والأدبية، ورهافة الشعور، وشجاعة الطبع في الشريف الرضي منذ طفولته، فكانت غربة الذكاء النادر من سماته الأولى، فقد قال من أحسن الشعر وهو في العاشرة من عمره، وكانت غربة الإحساس الصقيل، الإنفعالي المرهف قد بكرت معه منذ طفولته، فلا عجب أن زار الشيب شعر رأسه في العشرين، و«شيبُ الرأس من شيب الفؤاد».

فإذا ما جاز تشبيه الناس بالمعادن، فإن الشريف الرضي كان من أكرمها وأغناها، وفي حديث نبوي: «الناس معادن كمعادن الذهب والفضة، فخيارهم في الجاهلية، خيارهم في الإسلام إذا فقهوا»[٣٤].

وقد توفرت في الشريف الرضي صفات «ذهبية» متكاملة من ذكاء،

وشجاعة، وكرم وسخاء ورهافة حس، وحب للناس، وقد شملته عاطفة غامرة، كان يجود بها على الأصدقاء والأقربين ففاض بها شعره مثلما فاضت بها نفسه.

وكما في كل العصور فإن الشخص المتفوق، المرهف، المبدع، يجد نفسه غريباً بين أوساط من الناس الذين تتجاذبهم الأطماع والأهواء، الذين ينعقون مع كل ناعق، ولا يعرفون للحق سبيلاً.

ويشهد التاريخ أن العوامَّ الذين لم تشملهم الهداية وعوامل التغيير الثقافي الإنساني، هم الذين حاربوا وطاردوا الرسل والأنبياء والصالحين وذوي الكرامات والمتقدمين المبرزين على طريق الفلاح.

ولم يكن الشريف الرضي في غربته الروحية أقل بلاءً من الذين امتحنهم البلاء فما ازدادوا إلاَّ صلابة وإيماناً.

وأول غربة في طريق الإغتراب الروحي الطويل كانت غربة النفس، والتي قال فيها الشاعر الرضي:

النَّفسُ أدنى عدوٍّ أنت حاذره	والقلب أعظم ما يبلى به الرجلُ

وكانت قصيدة هذا البيت تذم الزمان، الذي لم تنقضِ فيه الحاجات في حين كان الشباب يولي مسرعاً:

ولَّى الشباب وهذا الشيب يطرده	يفدي الطريدة ذاك الطاردُ العجلُ
ما غازل الشيب في رأسي بمرتحلٍ	عني وأعلم أني عنه مرتحلُ
من لم يعظْه بياض الشعر أدركه	في غرَّةٍ حتفه المقدور والأجلُ
من أخطأته سهام الموت قيَّده	طول السنين فلا لهوٌ ولا جذلُ
وضاق من نفسه ما كان متَّسعاً	حتى الرجاء وحتى العزم والأمل(٣٥)

إن نفس الشريف الرضي المشدودة بالأيام الأولى التي لا عودة لها، لم

تجد في بقاء الحياة أي أمل:

وكيف نأمل أن تبقى الحياة لنا   وغير راجعة أيامنا الأُوَلُ

وتبعاً لثقافة الشريف الرضي فإن أفكاره عن «النفس» متصلة اتصالاً وثيقاً بثقافته القرآنية، أولاً، وبتجربته الشخصية ثانياً.

ويُعَدُّ قول الرسول: «أعدى أعداؤك نفسك التي بين جنبيك» هي المؤشر الرئيسي الذي تلقفه الثقاة، الذين وضعوا نصب أعينهم هدفاً كبيراً وهو تطهير النفس، وتحريرها من كل الموبقات والشوائب والسلبيات. فالتطهير هو الطريق إلى معرفة النفس، وأن الجهل بالنفس هو - في واقعه - إتباع هواها والإنخداع برغباتها.

وحينما كان الشريف الرضي يعقد موازنة بين عداوة الناس وعداوة النفس، كان يرى أن نفسه أعدى له من جميع الناس، ويقول في ذلك:

أروم انتصافي من رجالٍ أباعدٍ   ونفسي أعدَى لي من الناس أجمعا
إذا لم تكن نفس الفتى من صديقه   فلا يحدثَنْ في خُلَّة الدهرِ مطمعا

ولا ينخدع الشريف الرضي بما يصيب النفس من حالات صفاء مؤقتة، لأن نظراته كانت ترتد إلى أغوار النفس البعيدة، مدركاً صلتها بالزمن وبالموت.

فعلى هاتين الصلتين انبنت أفكاره عن النفس. وهو يختلف في نظرته إلى الزمن عن نظرة (أبي العلاء المعري)، فقد كان المعري ذا نظرة وجودية، وعقلية، مشتركة، لا تلقي بالإتهام على الزمن، وإنما على البشر الذين حق على الزمان أن يشكوهم لو استطاع تكلماً.

قال المعري:

نبكي ونضحك والقضاء مسلَّطٌ   ما الدهر أضحكنا ولا أبكانا

نشكـو الزمـان وما أتى بجنـايـة ولـو استـطاع تكلُّماً لشكـانـا[٣٦]

وتنطلق نظرات المعري الوجودية والعقلية من إيمانـه بقضاء اللّه الـذي لا رادَّ له، وبقدره، فهو يقول:

قضى اللّه فينـا بـالـذي هـو كـائنٌ فتمَّ وضـاعت حكمـةُ الحكمـاءِ
وهل يأبق الإنسـان من مُلْك ربِّـه فـيخرج مـن أرضٍ له وسـماءِ[٣٧]

ويقول:

رددت إلى مليـك الحقِّ أمـري فلم أسـألْ متى يقـع الكسـوفُ
لكم سلم الجهـول من المنـايـا وعوجل بالحمام الفيلسوف[٣٨]

أما الشريف الرضي فقد كان يرى في الزمن خصماً لدوداً..

لأنه الزمن الذي آل إلى فجيعة أهل البيت وشهد دماءهم المتناثـرة على أرض كـربٍ وبلاء، وهـو الـزمن الـذي شهـد سجن ونفي أبيـه، ومصـادرة أملاكه، وهو الزمن الذي يسوس فيه الأمور العلوج والسفهـاء، فيما يتعـرض فيه أهل الرئاسة الحقيقية إلى المحن والمصائد.

ورغم أن الزمن مزدوج تارة، كما يقول:

كُـلُّ شيءٍ من الـزمـان طـريفُ والليـالـي مغـانـمٌ وحتـوفُ

إلَّا أن لعبة الزمن ثابتة:

عـادةٌ لـلزمـانِ في كُـلِّ يـومٍ يتنـاءى خـلٌّ وتبكـي طـلولُ
فالليالـي عـونٌ عليـك مع البيْـ ـنِ كما ساعـد الذوابـل طـولُ

وهو في هذه اللعبة مغترب كبـير مهدور الـطموحـات، كثير الشقـاء، شديـد التحسس بالماضي، بذهاب أقوام، وبحتمية ذهاب آخرين. وهو يرى الـدهر وسط

الإغتراب، فهو لم ينصره يوماً ما، بل أحاطه بالخذلان، فقال:

فما لي طول الدَّهر أمشي كأنني لفضلي في هذا الزمان غريبُ
إذا قلتُ قد علَّقْتُ كفِّي بصاحبٍ تعودُ عوادٍ بيننا وخطوبُ

ويقولُ:

يقولون نمْ في هدنة الدهر آمناً فقلتُ ومن لي أن يهادنني الدهرُ
هل الحرب إلاَّ ما ترون نقيصةً من العمر أو عدمٌ من المال أو عسرُ
فلا صلح حتى لا يكون لواجدٍ ثراءٌ ولا يبقى على وافرٍ وفرُ

ويستجيب الشاعر ـ أحياناً ـ إلى دعوة العقلاء الداعين إلى مسايرة الدنيا، ولكنه يرى أن الدنيا، مهما دخل في مداراتها، فإنها مخادعة، حتى في زخرفها العلني، ومتاعها اللذيذ، وهو يشدِّد عى عدم الإنخداع بها فَـ:

هيهات يا دنيا وبرقك صادق أرجو فكيف إذاً وبرقك كاذبُ

ومهما أوتي من قوة لإرغام نفسه على مسالمة تصاريف الزمان، فإن النجاحات لم تكن بمستوى المأمول، بل دون ذلك بكثير.

وكثيراً ما حمل شعره ردّاً على نفسه، وهو في مونولوج الحوار الداخلي، وتذكير نفسه بضرورة توفر الناصر والمعين، فيما لا يجني من محاربة الزمان شيئاً، لأنه في تلك المحاربة يبقى قليل الناصر، فيقول:

سالمْ تصاريف الزمان فمن يرمْ حرب الزمان يعدْ قليل الناصرِ

كذلك حمل شعره ردوداً على الذين قالوا له بضرورة مماشاة الدهر، لخصها قوله:

يقولون ماشِ الدهر من حيث ما مشى فكيفَ بماشٍ يستقيم وأظلعُ

وما واثقٌ بالدهر إلا كراقِدٍ | على فضل ثوبِ الظلّ والظلُّ يسرعُ
وقالوا تعلَّلْ إنما العيش نومةٌ | يقضُّ ويمضي طارق الهمِّ أجمعُ
ولو كان نوماً ساكناً لحمدْتُه | ولكنَّه نومٌ مروعٌ مفزّعُ

إن الوطيسَ الحامي بينه وبين الدهر، قد عززه سوء الحظ الذي حالفه، مثلما حالف ذوي الفضل الذين أزرت بهم الدنيا. ولم يستطع الشاعر أن يتوقف عن مهاجمة سوء الحظ ونكد الدنيا، محملاً الدنيا - نفسها - مسؤولية سوء الحظ الذي انتظمه الزمان له ولأسرته خرزة، خرزةً، حتى صار تراثاً مأساوياً ضخماً، قال الشاعر:

ومن عجبٍ صدُودُ الحظِّ عنا | إلى المتعمِّمين على الخزايا
أسفَّ بمن يطير إلى المعالي | وطار بمن يُسِفُّ إلى الدنايا

ويرنُّ سوءُ الحظ في شعر الشاعر كثيراً فـ:

ما الذنب للمزن جازتني مواطره | وإنَّما الذنب للأرزاق والقِسَمِ

لكنَّه يخلص - دوماً - إلى النتيجة المعلومة، إلى عهر الدنيا وابتذالها، وانعدام العدالة فيها:

وخلائق الدنيا خلائق مومسٍ | للمنع آونةً وللإعطاءِ
طوراً تبادلك الصفاءَ وتارةً | تلقاك تنكرها من البغضاءِ
وتداولُ الأيام يبلينا كما | يبلي الرشاءَ تطاوحُ الأرجاءِ

وترتبط أفكار الشريف الرضي عن (الزمن) ومأساويته ارتباطاً قوياً بأفكاره عن (الموت).

بل إنَّ الشاعر المرهف الإحساس، والمبدع، والجمالي، يرى في الموت السبب الأول لاغترابه الروحي، وأنه يعمد إلى قهر هذا الإغتراب بالكفاح، والتمرد، والثورة، وصنع الأحداث، والحب، والإستغراق في تفاصيل الحياة

السياسية والعاطفية، إلا أنه - أي الإغتراب الروحي - ثعبان النفس الذي يخرج من الظل ماداً رأسه إلى الحياة، لكنه مشير إلى الموت. وليس غريباً على الشعراء أن يتحدثوا عن الموت، لأنهم بإحساسهم المتدفق الذي خبروا فيه غنى الحياة، شخصوا الحياة كحقيقة، لكنهم بالعقل والإحساس شخَّصوا الموت كحقيقة الحقائق.

وقد استخلص الأنبياء من الموت تصورات عظيمة عن الحياة والبعث، وأعطوا لوائح خالدة في الوعظ والتربية ورسم صور مثالية للسلوك الانساني، للفرد والجماعة.

ولم يهرب الشعراء من حقيقة الحقائق: الموت، بل واجهوه بمستويات مختلفة من النظر والرؤية.

على أن حكمة الموت الأساسية هي: ما دام الموت حتماً محتوماً، وقدراً ثابتاً، إذن على المرء أن يكون حقيقياً مع نفسه ومع سواه. وعليه أن يحسم تناقضه الداخلي بآتجاه التحرر من أي نفاق فكري وسياسي واجتماعي، لأنه لا يعلم متى يحين أجله.

فالموت يدعو إلى التطابق مع النفس، ويدعو إلى الشجاعة أمام ما هو دون الموت. بمعنى آخر أن الموت هذا السيد المطاع الذي لا يدع مجالاً لأي انسان للركوع أمام سلطان آخر دونه.

وقد أمد الموت الشعراء بأصناف رفيعة من الحكمة، لأنهم وهم يفتحون عيونهم عليه كانوا يرون التفاهات الدنيوية الصغيرة، ويقفون عندها باستهانة مثلما وقف عمر بن الخطاب بأصحابه يوماً على مزبلة... فأطال الوقوف حتى أضجرهم فقالوا: ما لك حبستنا هنا فقال: هذه دنياكم التي تتنافسون عليها(٣٩).

وإن كل الممارسات والأساليب التي يلجأ إليها الانسان في تهالكه على

السلطة والمال والمطامع الدنيوية، من قتل، وغدر، ونفاق، ووشاية، وتشويه، وإذلال، وكذب، تبدو إزاء حقيقة الموت الحاتمة مجرد نذالات صغيرة، تدمغ صاحبها بالتفاهة والخسران المبين.

ولقد رأى الشاعر العربي القديم حكمة الموت في بطلان النعيم الباطل لأنه زائل لا محالة، وليس البقاء إلا لوجه الله تعالى.

فقال لبيد بن ربيعة في البقاء الإلهي:

ألا كلُّ شيءٍ ما خلا الله باطلُ   وكلُّ نعيمٍ لا محالة زائلُ

والموت - أصلاً - يدفع الانسان إلى تعزيز اتجاهاته الأصيلة، وسماته الحقيقية، في التمسك بالحق، فقال زهير بن أبي سلمى:

بدا لِيَ أنَّ الله حقٌّ فزادني   إلى الحق تقوى الله ما قد بدا ليا

ومثلما رأى الشعراء بقاء الله وأزليته، فقد رأوا أيضاً بقاء البلاد بجبالها ووديانها وأنهارها، بأرضها وبسمائها، فأدخلوا الحس الوطني في شعرهم، من خلال حكمة الموت ودلالته في الفناء والبقاء.

وفي ذلك قال زهير بن أبي سلمى:

ألا لا أرى على الحوادث باقيا   ولا خالداً إلَّا الجبال الرواسيا
وألَّا السماءَ والبلادَ وربَّنا   وأيامنا معدودة والليا ليا

وأضاف الشعراء إلى البقاء الالهي الأزلي، وبقاء البلاد، وقيمة العمل الصالح منطلقاً نظرياً ودليل عمل وسلوك لدى الشعراء المؤمنين بوجود الله تعالى.

وأغنت الثقافة الاسلامية تصورات الشعراء، وخاصة في مجال الأفكار الأساسية التي شرحت البعث والحساب، والبدء والمعاد. فتطورت تصورات

الشعر العربي القديم بعد نشوء الاسلام، وأصبحت الآيات القرآنية ملهماً أساسياً في التأكيد على الدلالات الروحية والأخلاقية في البعث والنشور وأصبحت للعمل الصالح أهمية استثنائية مرموقة في تحديد هوية المسلم المؤمن.

ومن الآيات البينات التي تذكِّر الانسان بالمعاد:

﴿إليه مرجِعُكُمْ جميعاً وعدَ الله حقّاً إنَّه يبدأُ الخَلْقَ ثُمَّ يعيدُهُ ليجْزِيَ الذين آمنوا وعملوا الصالحاتِ بالقِسْطِ والذين كفروا لهم شرابٌ من حميمٍ وعذابٌ أليمٌ بما كانوا يكْفرون﴾(٤٠).

﴿إنَّا نحن نَرِثُ الأرضَ ومن عليها وإلينا يُرْجَعون﴾(٤١).

﴿يومَ نطْوي السماءَ كطَيِّ السِجِلِّ للكُتُبِ كما بَدَأْنا أوَّلَ خَلْقٍ نعيدُهُ وعْداً علينا إنَّا كنَّا فاعلين﴾(٤٢).

﴿كلّ من عليها فانٍ﴾(٤٣).

﴿ إنَّه هو يُبْدِىءُ ويُعيد﴾(٤٤).

وقد عبَّر علي بن أبي طالب خير تعبير عن حكمة الموت والعلاقة بين البعث والعمل الصالح قائلاً:

ولو أنَّا إذا متنا تُرِكْنا لكان الموتُ راحةَ كلّ حيٍّ
ولكنَّا إذا متنا بُعِثْنا ونسْألُ بعده عن كلِّ شيٍّ

وقال أيضاً:

لا دار للمرء بعد الموت يسكنها إلا التي هو قبل الموت بانيها

وأصبحت هداية الشعراء متمثلة بمعرفة حكمة الموت، فيقول أبو

نواس:

المـوتُ ضيفٌ فـٱستعِـدَّ لـه   قبـل النـزول بـأفضل العُـدَدِ
واعمـلْ لـدارٍ أنت جـاعـلُهـا   دار المـقـامـة آخـرَ الأمـدِ
يـا نفسُ مـوردك الصراط غـداً   فـتـأهَّبي من قبـل أن تـردي

وقال:

إنَّ لـلمـوت لـسـهْـماً   واقـعـاً دونـك أو بِـكْ
فـعـلى الله تـوكَّـلْ   وبـتـقـواه تمـسَّـكْ

وحيث إن الشريف الـرضي عـالم ضليـع في الـديـانـة الاسلامية والروحيانات، جمع العلم الوهبي بالعلم الكسبي، فقد كانت له من المفاهيم الاسلامية عدة كبيرة لتقـويم شعره بـأفكار ثـرية بـالحكمة والمعـرفة والموعظة والسداد. وكانت للشاعر المتنبي تأثيراته الواضحة في بداية التجربـة الشعريـة للشريف الرضي، سواء أكان ذلك في أغراض الشعر، أو في تركيبه.

وقـد كان للمتنبي مـع الموت حـوار نابـه، صارخ، غني بـالتصـورات والمفاهيم الراسخة.

وكان وصف المتنبي للموت مزيجاً من الذكاء والطرافة في التشبيه. فهو يقول:

وما الموت إلا سـارقٌ دقَّ شخصه   يصول بلا كفٍّ ويسعى بلا رجلِ

ويشـير المتنبي إلى أن الموت معـروف الطبـاع بالصفـات، لا بالتجـربة الشخصيـة، لأن ليس هنـاك من آب بعـد مـوت، حتى يشرح مـا لاقى ومـا رأى، فيقول:

فالموتُ تُعْـرفُ بالصفـاتِ طباعُـه   لم تلقَ خلقـاً ذاق مـوتـاً آئبـا

وتقـترن حتمية المـوت لدى المتنبي بـالشجاعـة وضرورة الموقف الحـازم

الحاسم، فهو يقول:

نحن بنو الموتى فما بالنا ... نعافُ ما لا بدَّ من شربِهِ
تبخلُ أيدينا بأرواحنا ... على زمانٍ هي من كسْبِهِ
يموت راعي الضأن في جهله ... ميتةَ جالينوسَ في طِبِّهِ
فلا قضى حاجته طالبٌ ... فؤادُهُ يخفق من رُعْبِهِ

ويقول أيضاً:

وإذا لم يكن من الموت بدٌّ ... فمن العجز أن تموت جبانا

أما الشريف الرضي فقد أودع فكرة وحكمة الموت في العديد من قصائده منطلقاً من عذاب الروح الذي ساقه في دروب الاغتراب الطويل، فاغتراب الروح هو الاغتراب الأكبر، الذي كان الشاعر ينظر - من داخله - إلى وضعه الشخصي، وحياته، ومماته.

فلقد رأى في سجن الروح في جسده السجن الذي تتضاءل دونه العذابات الأخرى. فقال الشريف الرضي:

كلُّ حبسٍ يهون عند الليالي ... بعد حبس الأرواح في الأجسادِ

وهو بيت شعر من قصيدة جاء فيها:

كلُّ حيٍّ يغالط العيش بالدهـ ... ـر وكلٌّ تعدو عليه العوادي
لو رجعنا إلى العقول يقيناً ... لرأينا المماتَ في الميلادِ
كيف لا يطلب الحِمامَ عليلٌ ... حكَّم الدهرُ فيه رأيَ المعادِ

ويسمو الرضي في ذكر الموت، وفي وعظ الناس، والتذكر بالقيم الإنسانية المجيدة (الحرية، والشجاعة، ورفض الذل، الخ)، ويأخذ الرثاء عنده مهمة توجيه العزاء بواسطة الحكمة.

فقال يرثي بنت صديق له:

عجزنا عن مراغَمَة الحمامِ ... وداء الموت مغرىً بالأنامِ
وما جزع الجزوع وإن تناهى ... بمنتصفٍ من الداء العقامِ
وأين نحورُ عن طرق المنايا ... وفي أيدي الردى طرف الزمامِ
هي الأيام تأكل كلَّ حيٍّ ... وتعصف بالكرام وباللئامِ
وكلُّ مفارقٍ للعيش يلقى ... كما لقيَ الرضيعُ من الفطامِ
وكم ليَدِ النوائب من صريعٍ ... بداء السيف أو داء السقامِ
وما يغْترُّ بالدنيا لبيبٌ ... يفرُّ من الحياة إلى الحمامِ
تنافرُ ثم ترجع بعد وهنٍ ... رجوع القوس ترمح بالسهامِ
خطوبٌ لا أجمُّ لها جوادي ... وعزمٌ لا أحطُّ له لثامي
رأيتُ الموت يبلغ كلَّ نفسٍ ... على بعد المسافة والمرامِ
سواء إن شددت له حزيمي ... زماعاً أو حللت له حزامي
عزاءَك ما آستطعتَ فكلُّ حزنٍ ... يؤول به الغلوُّ إلى الأثامِ
وعمر المرء ينقص كلَّ يومٍ ... ولا عمرٌ يقرُّ على التمامِ (٤٥)

وتختلف فلسفة الشريف الرضي في الموت، عن فلسفة أبي العلاء المعري، وذلك في قضية رئيسية وهي أن الشريف الرضي صاحب رسالة، وكانت الرسالة لا تمثل طموحه فقط، بل وتمثل طموح نسبة كبيرة من الموالين والأشياع. كان قائداً له أتباع أوفياء رغم قلتهم.

ومن موقعه ذاك، كانت رؤيته للموت مليئة بالأفكار الايجابية التي كانت تعبر أفضل تعبير عن (الموقف) في حياة الشريف الرضي.

في حين كانت رؤية أبي العلاء المعري للموت تشاؤمية، بالغة التشاؤم، كما نرى في هذه المقتطفات من شعره:

أنا صائمٌ طول الحياة وإنما ... فطري الحمام ويوم ذاك أعيِّدُ

و:

نصحتك فاعمل له دائماً وإن جاء موتٌ فقلْ مرحبا

و:

ما أوسع الموتَ يستريحُ به الْـ ـجسم المعنَّى ويخفت اللجبُ

و:

يدلُّ على فضل المات وكونه إراحة جسم أن مسلكه صعبُ

و:

إذا غدوتُ ببطن الأرض مضطجعاً فثمَّ أفقد أوصابي وأمراضي

و:

الموت جنسٌ ما تميَّز واحدٌ كتل الجسوم إلى التراب تنسَّبُ

وترتفع نزعة التشاؤم بقوله:

يحطمنا ريب الزمان كأننا زجاجٌ ولكن لا يعاد له سبكُ

وإذا كانت القضية التي رفع لواءها الشريف (وهي قضية سياسية وأيديولوجية وأخلاقية)، هي التي عصمته من الوقوع في تشاؤمية مفرطة، فإنها لم تفلح - من جانب آخر - في إخفاء الحزن العتيد، حزن الشريف الرضي.

وتشهد بكائيات ورثائيات الشريف الرضي على مدى تغلغل الحزن في أعماقه، وكذلك مدى تجاوبه مع الحزانى والمنكوبين.

ويذكر د. زكي مبارك «أن الرضي كان يجد من نوائبه الوجدانية ينابيع للحزن لا تنضب ولا تغيض» وعن بكائه يقول: «وما كان الشريف يبكي أحبابه مرة واحدة ثم يلوذ بالصمت. لا، وإنما كان يصل أحبابه بالذكرى والحنين فلا يفقد منهم غير الوجود الملموس. فطريق الحج على طوله في تلك

العهود كان يمثل للشريف دائماً أُمماً كثيرة من عوالم الأحياء والأموات. ولعل ظهور الخيل لم تعرف فتىً أقوى شاعرية من ذلك الفتى البكاء. والفرح والترح يفيضان من ينبوع واحد لو تعلمون»[٤٦].

من ناحية سيكولوجية إن البكائين الاصلاء هم - غالباً - من الذين تجمعت في نفوسهم شمائل جمة هي شدة الحب، وشدة الصدق، وقوة رهافة الاحساس.

ومن المظاهر السلبية للثقافات الشائعة في عصور الاستبداد والتحجر، انها صورت البكاء تعبيراً عن الضعف البشري، والحال أنه تعبير عن عاطفة بشرية حقيقية لا يستطيع كبتها إلا أكثر الناس قساوة وتجبراً.

ومن المعروف أن المصلحين الكبار ذوي القلوب الانسانية العامرة بحب الناس، وبالحكمة، هم أكثر الناس بكاءً، وهم على ما هم عليه من شجاعة وبسالة ويقين.

وكان الشريف الرضي الانسان، والرائد المصلح، شديد العبرة، قوي التعاطف مع المتكولين. وهو في ذلك يشبه آباءه الأولين الذين كانوا يبكون الليل من خشية الله حتى ذبلت عيونهم.

ويقول د. زكي مبارك: «ومن عجائب ما وقفت عليه أن الناس كانوا يسألون الشريف أن يبكي موتاهم فيجيب: والشجى يبعث الشجى، والدنيا عند الحزين كلها قبر مالك» أليس من العجيب أن يُسْأل الشريف بكاء ميت لا يعنيه فيقول:

ألا مخبرٌ فيما يقول جلية ... يزيل بها الشكَّ المريبَ يقينُ
اسائله عن غائب كيف حاله ... ومن نزل الغبراء كيف يكون
وما كنتُ أخشى من زماني أنني ... أرقُّ على ضرائه وألينُ

إلى أن رماني بالتي لا شوىً لها | فأعقب من بعد الرنين أنينُ
وإنَّ أحقَّ المجهشين بعبرةٍ | ووجدِ قرين بان عنه قرينُ
وما تنفع المرءَ الشمالُ وحيدةً | إذا فارقتها بالمنون يمينُ
تجرَّم عامٌ لم أنل منك نظرةً | وحان ولم يقدرْ لقاؤك حينُ[47]
أمرُّ بقبرٍ قد طواك جديدُه | فأبلس حتى ما أكاد أبينُ[48]
وتنفضُّ بالوجد الأليم أضالعُ | وترفضُّ بالدمع الغزير شؤونُ

ومعاذ الأدب أن يكون الشريف في هذه القصيدة كالنائحة المستأجرة، وهل كانت النائحة المستأجرة تعني حقاً من دعيت للبكاء عليه؟ إنها تبكي ودائعها في التراب فهي نائحة ثكلى مفطورة الفؤاد»[49].

ويضيف: «فالشريف يجسم معاني الأخوة وهو يبكي أصدقاءه المجهولين وهو أيضاً يشرح للناس مذاهب الوفاء».

ومن شواهد شعره في بكاء المغمورين ما قاله:

ما لي أُودع كلَّ يوم ظاعناً | لو كنت آمل للوداع لقاءا
وأروح أذكر ما أكون لعهده | فكأنني آستودعته الأحشاءا
فرغتْ يدي منه وقد رجعت به | أيدي النوائب والخطوب مِلاءا
أحبابيَ الأدنين كم ألقى بكم | داءً يمض فلا أُداوي الداءا
أحيا إخاءكم المهات وغيركم | جرَّبتُهم فثكلتهم أحياءا
إلَّا يكن جسدي أُصيب فإنني | فرَّقته فدفنته أعضاءا

وقال في قصيدة ثانية:

أقول وقد قالوا مضى لسبيله | مضى غير رعديد الجنان ولا نكسِ
كأن حداد الليل زاد سواده | عليك ورد الضوء من مطلع الشمسِ

أرى كل رزءٍ دون رزئك قدره فليس يلاقيني ليومك ما ينسي[٥٠]

وقال من قصيدة ثالثة وهي في رجل كانت له شخصية، ولا نعرف السبب في طي اسمه عن الناس:

ما بعد يومك ما يسلو به السالي ومثل يومك لم يخطرْ على بالي
وكيف يسلو فؤادٌ هاض جانبه قوارعُ من جوى همٍّ وبلبالِ
يا قلب صبراً فإن الصبر منزلةٌ بعد الغوِّ إليها يرجع الغالي
نقص الجديدين من عمري يزيد على ما ينقصان على الأيام من حالي
مضى الذي كنت في الأيام آمله من الرجال فيا بعداً لآمالي
قد كان شغلي من الدنيا فمذ فرغت منه يدي زاد طول الوجد أشغالي
تركته لذيول الريح مدرجةً ورحت أسحب عنه فضل أذيالي
ما بالي اليوم لم ألحق به كمداً أو أنزع الصبر والسلوان من بالي[٥١]

ويربط د. زكي مبارك الطبيعة البكائية للشريف الرضي بظاهرة هي من غرائب الوفاء عند الشريف وهي بكاء النساء قائلاً: «وهناك جانب من غرائب الوفاء عند الشريف هو بكاء النساء، وهذا أغرب الجوانب، وهو يحتاج إلى تأمل ودرس، ولا نعرف بالضبط كيف نشأ الاحساس عند الشريف، فقد كان المألوف في التقاليد العربية أن لا يبكي من النساء غير المعشوقات، وبكاء الامهات والحلائل باب من النبل، ولكنه في شعر العرب قليل، فقد لا يساوي واحداً من خمسين إذا أحصينا ما قيل في الرثاء، فكيف اتفق للشريف الرضي أن يكثر من تعزية الناس في امهاتهم، وبناتهم، وأخواتهم؟

إن هذه الظاهرة ليس لها عندي غير تعليل واحد، هو أن الشريف الرضي كان (ابن امه) كما يعبر المصريون حين يداعبون من يغضبون لامهاتهم من الأطفال.

ونحن نعرف أن أيام البؤس في حياة الشريف مضت وهو في رعاية أمه الرؤوم التي باعت أملاكها وحليّها لتقيه وتقي أخاه ذل العوز والاحتياج.

والأُمُّ الرؤوم لم تجد من يؤرخ فضلها في اللغة العربية. ويندر بين كتّاب العرب من يقول حدثتني امي وأنبأتني اختي وأخبرتني حليلتي، وإن كان في شعرائهم من يقبِّل النعال في أقدام الملاح.

وما اريد أن اطيل القول فيما أثر عن العرب والهنود من بغض البنات، فذلك معروف، وانما اريد أن أقف عند هذه النزعة النبيلة من نزعات الشريف، وأنا أجزم بأنه كان يرى المرأة في صورة امه تلك الام التي وقته مكاره الحياة في السنين العجاف يوم اودع أبوه غياهب الاعتقال»[٥٢].

وما يهم من ذكر استطراد د. زكي مبارك، هنا، هو أن بكائية الشريف الرضي كانت تسع الأصدقاء المعروفين والمجهولين، والأحبة المفقودين، والناس المحزونين، لأنه في ذلك كان يجسد طبيعته البكاءة، وما لم يعطه د. زكي حقه في تعليل الظاهرة البكائية للرضي مغزى العلاقة بين الزهد والبكاء، وفيض تلك العلاقة على جوانب الحزن والتأسي والتفجع لكل محزون أو مفجوع.

ويمتد جذر العلاقة بين الزهد والبكاء في حياة الشريف الرضي إلى آبائه الزهّاد المعروفين بكثرة البكاء، وبخاصة زين العابدين بن الحسين، الباقر بن زين العابدين وسواهما.

وقد أورد لنا أو نعيم نصاً بيَّن فيه جوهر زهد علي بن الحسين (زين العابدين)، وذلك أنه سئل عن كثرة بكائه فقال: « لا تلوموني فإنَّ يعقوب فقد سبطاً من ولده فبكى حتى ابيضت عيناه ولم يعلم أنه مات. وقد نظرتُ إلى أربعة عشر رجلاً من أهل بيتي يقتلون في غزاة واحدة. أفترون حزنهم

يذهب من قلبي»[٥٣].

أما محمد الباقر بن زين العابدين فكان يقول: «ما اغرورقت عين بمائها إلَّا حرَّم الله وجه صاحبها على النار»[٥٤].

بل إن محمداً الباقر يقسم البكاء كما قسم المعرفة (وقد حفل أبوه كذلك من قبل) فقال: «فإن سالت على الخدين لم يرهق وجهه قتر ولا ذلة، وما من شيء إلَّا له جزاء إلا الدمعة، فإن الله يكفِّر بها بحور الخطايا، ولو أن باكياً بكى في امة لحرَّم الله تلك الامة على النار»[٥٥].

وقد ربط محمد الباقر البكاء بالذكر صراحة فقال: «الصواعق تصيب المؤمن وغير المؤمن، ولا تصيب الذاكر».

أي أن البكاء هو علامة متميزة من علامات الزهد، وهو يصفِّي القلوب، ويطهِّر النفس من الذنوب، وهو في إطلاق عنانه في المناسبات الانسانية، الفجائعية فيض رحمة.

وهكذا كان الشريف الرضي تفيض نفسه عطفاً ورقة وحناناً في كل مشهد انساني مأساوي، وفي كل ذكرى مؤلمة. لقد سمت نفسه بالتفجع، وتحررت من الغلظة والقساوة، فأصبحت تطير وتحطُّ عند كل ذكرى، وقرب كل طلل.

ولم تكن روحه المتفجة، لتستغرق في الانفعال الحزين المجرد، والذي قد يصيب البسطاء الطيبين من الناس، رقيقي الاحساس، بل كانت تغتذي من الحس التاريخي، لأن كل ظاهرة مرئية تحت بصر الشريف الرضي كانت تثير فيه الذكريات، والحدثان، وما جرى للناس، وللحواضر، وللأمكنة، من تغيير.

لقد انتبه بعمق إلى حركة الزمن في جدلية البقاء والزوال، مكتنهاً تلك

الجدلية من أعمق أعماقها، ومن أول نقطة فيها، فعظمت نفسه، وتغربت، لأن الأمكنة ما بين نشوء وزوال، لم تكن قادرة على أن تستوعب جسمه الذي حمل روحاً تطير - دوماً - نحو العلى والأعالي، لكنها تسكب الدموع عطفاً ورحمةً، حتى محيت العيون من البكاء، كما قال:

محا بعدكم تلك العيون بكاؤها ... وغال بكم تلك الأضالع غولُها
فمن ناظرٍ لم تبقَ إلاَّ دموعُه ... ومن مهجةٍ لم يبقَ إلاَّ غليلُها
دعوا ليَ قلباً بالغرام أُذيبُه ... عليكم وعيناً في الطلول أُجيلُها

الاغتراب السياسي:

كان دخول البويهيين بغداد سنة (٣٣٤هـ) يعني نهاية نفوذ الخلافة العباسية، وبداية عهد جديد يتسم بتعاظم النفوذ الفارسي، والهيمنة الشعوبية، وقد بلغ الاضطهاد السياسي درجة عالية، لما كان في بني بويه من فظاظة وقسوة وجشع وحب للمال فـ «أكثروا من المصادر والعزل والسمل والقتل» ولم تتوقف النزعة الارهابية الدموية عند حد، فقد شملت حتى وزراء وأنصار البويهيين بالذات، فقد «أقدم عز الدولة بن معزِّ الدولة على سمل وزيره ابن بقيَّة، وحمله إلى عضد الدولة ليطرح تحت أرجل الفيلة، ويُصلب على شاطىء دجلة. كما أقدم الأمير على قتل ابن العميد الذي مات تحت وطأة التعذيب حيث سمل وقطع أنفه»(٥٦).

وبلغت النزعة الدموية لدى البويهيين مبلغاً عظيماً، وذلك باحتدام الصراع بين أركان السلطة البويهية، وحسمه بالقتل والضرب فكان الاقتتال وسفك الدماء والصراع على السلطة قد «وصل إلى حد أن يوافق شرف الدولة على سمل أخيه صمصام الدولة، ويزداد المرء عجباً، عندما يعرف أن نِحْريرا الخادم هو الذي أشار على شرف الدولة بما أقدم عليه ولقد كانت قبل هذا، وقعة بين بختيار وبين عضد الدولة، اندحَر فيها بختيار، واشير على

عضد الدولة بالتخلص منه فاحتزَّ رأسه»[٥٧].

وبحكم الطبيعة العدوانية والاجرامية للحكم البويهي، ازداد الفتك والظلم والفساد، وكثرت المآسي الاجتماعية.

و«حدثتنا كتب التاريخ عن المجاعات وغلاء الأسعار وعن الأمراض والموت الذي لحق بالناس، بما يعطينا صورة كافية، ويبدو أن سنة دخول بني بويه بغداد، كانت عجفاء، قد ذكر عنها مسكويه: إن الغلاء كثر فيها حتى عدم الناس الخبز، وأكلوا الموتى والحشيش، وبعض البذور غير الصالحة، فلحق الكثيرين أورام في أحشائهم، ومات أكثرهم، وخرج الناس إلى البصرة يطلبون التمر فهلك أكثرهم في الطريق، كما قبض على امرأة سرقت صبياً فشوته وأكلته فضربت عنقها»[٥٨].

و«يقول ابن العماد إنه في سنة ٣٨٢ هـ، غلت الأسعار بالكرخ، حتى بيع رطل من الخبز بأربعين درهماً، والجوزة بدرهم، وفيها شغب الجند وعسكروا..»[٥٩]. أي أن اللوحة السياسية للوضع كانت تتسم بالتدهور السياسي والفوضى الاجتماعية، وتفاقم الصراعات الطائفية المذهبية التي لعب الحكم البويهي دوراً كبيراً في تأجيجها.

وإذا كان الإطار الداخلي للحياة الاجتماعية في زمن البويهيين، ينم عن اتساع نطاق الفتن الدامية، فإن الإطار العام كان ينم عن انتشار الحروب، فـ «في غمرة الأحداث الدموية، كانت تدور رحى أحداث دموية أفظع منها بين العرب والفرس والترك، فلقد كانت الفتن تتجدد في كل سنة، وتتوالى، وتختلط فيها الأحداث، وتتحالف الفئات ثم تنقض الحلف، فتسفك الدماء، وتخرب البلاد، وتعم الفوضى»[٦٠].

وبعبارة محددة إن سياسة البويهيين عملت على تصديع وحدة وقوة المجتمع العربي، وذلك بتصعيد الصراعات القومية أولاً، والصراعات الطائفية

ثانياً، في سياق نزعة عدوانية ضارية.

و«وسط الأحداث المروعة عاش الشريف الرضي، وشهد النزاع الدامي الطويل وامتلأت نفسه بالصور المرعبة، فمن خليفة يخلع ويسمل، إلى أمير بويهي يحتز رأسه، ومن والد تصادر أملاكه ويسجن، إلى صديق ينكب، والروم يغزون أطراف المملكة الإسلامية، والأمر فوضى، والسلطان البويهي معز الدولة يمتنع عن الطعام والشراب، ويتضجّر بالجيش، ويطّرح التدابير، لأن غلامه التركي يؤسر»(٦١).

في زمن البويهيين عاش الشريف الرضي حياته الممتدة ما بين عامي ٣٥٩ هـ و٤٠٦ هـ، وقد شهد سلب السلطة، واستلاب العروبة سلب السلطة من قبل البويهيين، واستلاب العرب بسبب سيادة العنصر البشري الفارسي وثقافته وتقاليده.

فما هي ردود فعل الشريف الرضي، وهو ما عليه من حسب ونسب؟

فالشريف الرضي المولود في جانب الكرخ من بغداد، والذي ينتمي إلى إسرة عريقة في الحسب والنسب، وفي المجد. كان يرقب السلطة الغاشمة، وهو يحمل على هامه مجداً عتيداً راسخاً. كما أنه كان يرقب البلبلة الشعوبية بعين انتمائه العربي الأصيل.

إنما بسبب مجده التاريخي، وعروبته نشأ اغترابه السياسي، وهو اغتراب الثوري الذي سئم الزمان المخادع، وأحابيله وغرائبه، محتفظاً بروح التحدي والمقارعة، على ما هو عليه من قلق، وقد أبان عن ذلك مبكراً في قوله:

سئمتُ زمـانـاً تنتحيني صروفُـه ... وثوبَ الأفاعي أو دبيبَ العقاربِ
مقـام الفتى عجزٌ عـلى ما يضيمـه ... وذلُّ الجريء القلب إحدى العجائبِ
سـأركبهـا بـزلاءَ إمَّـا لمـادح ... يـعـدِّد أفعـالي وإمَّـا لـنـادبِ
إذا قـلَّ عـزم المرء قـلَّ انتصاره ... وأقلع عنـه الضيم دامي المخالبِ

وما بلغ المرمى البعيد سوى امرئٍ يروح ويغدو عرضةً للجواذبِ
وما جرَّ ذلاًّ مثل نفسٍ جزوعةٍ ولا عاق عزماً مثل خوف العواقب
ألا ليت شعري هل تسالمني النوى وتخبو همومي من قراع المصائبِ
إلى كم أذود العين أن يستفزَّها وميض الأماني والظنون الكواذبِ
حُسِدْتُ على أني قنعت فكيف بي إذا ما رمىٰ عزمي مجال الكواكبِ
وما زال للإنسان حاسد نعمةٍ على ظاهرٍ منها قليل رغائبِ
وأبقتْ لي الأيام حزماً وفطنةً ووقَّرْن جأشي بالأمور الغرائب
توزَّع لحمي في عواجمَ جمَّة وبان على جنبيَّ وسمُ التجاربِ(٦٢)

إن تطلع الشريف الرضي إلى مجال الكواكب يعبر عن آماله الكبرى، التي لم تكن مجرَّد كشف حال بسموِّه وعزِّه، بل كانت تطلعاً سياسياً خدمه بكل طاقاته الروحية والشعرية، وبكل مزاياه السياسية والاجتماعية.

في البدء ثمة حقيقة شاخصة في شعر الرضي وهي اعتزازه بعلوِّ مكانته وشرفه، وما المصائب والهموم التي حلت به إلا الثمن الذي لا بد للشرف من تقديمه، وقال في أبدع تعبير:

وضيوف الهموم مُذ كنَّ لا ينْـ زلْن إلاّ على العظيم الشريف

ولم تكن افتخارات الشريف الرضي معزولةً على الأخلاقيات الاجتماعية، بمعنى أنه لم يتناول افتخاره على نحو شخصي فقط، بل هو يقرنه دوماً بالقضية السياسية والأخلاقية التي استحوذت على ذهنه ونفسه استحواذاً تاماً.

فهو إذ يعتزُّ بكرامته وكبريائه وحريته وعزته، يُعلم الآخرين - أيضاً - الاعتزاز بالكرامة، ورفض الذل. وتأخذ أشعاره في ميدان مكافحة الذل وعاره مكانة الحِكَم والمأثورات الغالية.

فهو يقول:

وموت الفتى خيرٌ له من حياته إذا جاور الأيام وهو ذليلُ

وكذلك يقول:

وكلُّ فتىً لا يطلب المجد أعزلٌ وكلُّ عزيزٍ لا يجود ذليلُ

و:

لا تَخْلُدنَّ إلى أرضٍ تهون بها بالدار دارٌ وبالجيران جيرانُ

و:

الحرُّ تنهضه إمَّا شجاعته إلى الملمِّ وإمَّا خشية العارِ

وتتناثر في قصائد الرضي درر الحكم باتجاه نشر مفاهيمه عن الحرية والكرامة، والشجاعة، ونبذ التعاون والتزلف والخضوع، لكنه، وبقدر ما يتعلق الأمر به، كان يخاطب نفسه بصوتٍ عالٍ كثيراً مذكراً نفسه بالمعنى الخاص لدوره في الحياة. فهو الذي قال:

ما مقامي على الجداول أرجو ها لَنَيلٍ وقد رأيتُ البحارا

وكان يشدد على نفسه الحساب، عندما يتذكر علوِّ رسالته، وقداسة هدفه. وإذا ما كانت للشريف الرضي في الشعر صبوات هائلة لكونه شاعراً عظيماً، فإن مطالب رسالته السياسية كانت أهم لديه من الشعر، بل إنه أخبر عن أنه قال الشعر ذريعةً إلى أمل كبير، ما إن يتحقق حتى يهجر الشعر:

ومـا قوليَ الأشعار إلّا ذريعةٌ إلى أملٍ قد آن قودُ جنيبِهِ(٦٣)

وإنِّي إذا ما بلَّغَ الله غايةً ضمنتُ له هجرَ القريض وحوبِهِ(٦٤)

وإن يستصغر أحياناً حرفة الشعر، بسبب قداسة رسالته، وطموحه الديني والسياسي الكبير فيقول:

وما الشعر فخري ولكنّها   أطول به همَّة الفاخرِ
أنزِّهه عن لقاء الرجال   وأجعله تُحْفةَ الزائرِ
فما يتهدَّى إليه الملو   ك إلّا من المثَل السائرِ
وإنّي وإنْ كنتُ من أهله   لتنكرني حرفة الشاعرِ

وكذلك قال:

ما لكَ ترضىٰ أن يقال شاعرٌ   بُعْداً لها من عُددِ الفضائلِ
كفاكَ ما أورق من أغصانه   وطال من أعلامه الأطاولِ
فكم تكون ناظماً وقائلاً   وأنتَ غِبَّ القول غير فاعلِ

ولم يعلن - فقط - اعتذاره عن حرفة الشعر واستعداده لهجر نظم القصائد، وهو شاعر الحب والهوى لأن شعاره هو:

من يعشق العزّ لا يرنو لغانية   في رونق الصفو ما يغني عن الكدرِ

وهو في انتمائه لقضيته الكبرى، كان يشدد على حاجته إلى الحزم، والحزم يستبعد الهوى:

أضعتُ الهوى حفظاً لحزمي وإنما   يُصان الهوى في قلب من ضاع حزمه

ترى، أية قضية تلك التي تتمحور حولها أفكار وأشعار الشريف الرضي، والتي يدور حولها مسار حياته؟ أية قضية تلك التي يعلن أن الشعر والحب دونها بكثير، وأنه مستعد للأضراب عن الشعر والحب من أجل تحققها؟

هل هي المنصب الذي يتولى من خلاله تأدية مسؤولية معينة، في زمن البويهيين الذين استمالوا عدداً من الشعراء والكتّاب واستوزروهم أو قلدوهم بعض المناصب العالية؟

في الواقع كان للشريف الرضي منصبه المرموق فقد شغل منصب نقابة

الطالبيين، ونظر في المظالم، وحجّ بالناس مراراً، وأنه تسلم هذه الأعمال في أوقات مختلفة نائباً عن والده أبي أحمد الموسوي أو مستقلاً بالمنصب(٦٥).

أما إمارة الحج فكانت هي الأخرى من المناصب التي تدل على نفوذ الشريف الرضي وقوة شخصيته، فقد كانت تحتاج إلى رجل يفرض زعامته وهيبته واحترامه على جمهور المسلمين، ويستطيع حمايتهم في صحراء واسعة يبتعدون فيها عن مركز السلطة، ويتعرضون لمخاطر الغزو والسلب، وقد حج الشريف بالناس مراراً، وخالط البدو، وعاش حياة الصحراء، وعانى متاعبها ومخاطرها، فأثرت في نفسه، وحمل منها ذكريات.

ففي سنة (٣٨٩ هـ) حج الشريف بركب العراق مع أخيه المرتضى واعتقلهما ابن الجراح فافتديا نفسيهما بتسعة آلاف دينار(٦٦).

وفي سنة (٣٩٦ هـ) تولّى نقابة الطالبيين بالعراق، وذكر البعض أنه تقلد النقابة وإمارة الحج، ولكن في السنة التي تلت(٦٧).

أما في سنة (٤٠٣ هـ) فقد قُلِّدَ الشريف نقابة الطالبيين في سائر الممالك، وقرىء تقليده في دار الوزير فخر الملك، وخلع عليه السواد، وقيل إنه أول طالبيٍّ يخلع عليه السواد(٦٨).

ولم يكن الشريف الرضي يرى في (النقابة) هدفه النهائي، غير أنه كان يراها حقاً موروثاً، فقال:

قل للعدا موتوا بغيـ ـظكم فإن الغيظ مُرْدي
ودعوا عُليَّ أحرزتها يا وادعين بطول جهدِ
كم بين أيديكم وبيـ ـن النجم من قربٍ وبعدِ

وليَ الـنـقـابـة خـال أُمْـ   ـمـي قـبـلُ ثـمَّ أبي وجـدِّي
وُلِّـيـتُـهـا طـفـلاً فـهـل   مجـدٌ يـعـدَّد مـثـل مجـدي
وأظـنُّ نـفسي سـوف تحْـ   ـملني عـلى الأمـر الأشـدِّ
حـتى أرىٰ مـتـمـلِّكـاً   شرق العلى والغرب وحدي

وفي قصيـدة أخرى يـرد فيها عـلى قلق بعض أعدائه من تقلده النقابـة، أفصح فيها عن هدفه الأكبر فقال:

قلق العـدوُّ وقـد حـظيتُ بـرتبـةٍ   تـعلو عـن الـنُّـظَراء والأمـثـال
لـو كنتُ أقنع بـالنقابـة وحـدهـا   لغضضتُ حـين بلغتُهـا آمـالي
(لكنَّ لي نفساً) تتـوق إلى الـتي   مـا بعـد أعـلاهـا مقـامٌ عـالِ

إن الشاعر الهادر الذي ينطوي صدره على شرف رفيع وكرامة عظيمة، كـان يعرف مقـامه جيـداً، وكان يسـير في الزمن وكـأنه يخفي مقـامه الحقيقي عنه، لأنه متوجه نحو غايته الكبرى، ورسالته التي لا يستطيع نسيانها.

فقال:

تـعـرِّفني بـأنـفسهـا الـليـالي   وآنـف أن أُعـرِّفـهـا مـكـاني

لكن مكـانه ليس في منصب، أو وظيفـة، بـل في العـلى الـذي لم يكن بالنسبة إليه ترجمة عادية للتباهي، بل كان العلى بمعنى قيادة السلطة، فقد كان الرضي يرى نفسه جديراً بالخلافة، أَوَلَيْسَ هـو الأحق بها من الـديلم الذين جاءوا من بلاد فارس واستولوا على بغداد مستبيحين تاريخ العروبة وأمجادها؟

وفي غالبية شعـر الشريف يبدو ذلـك الاحساس الغـامر الـذي يستولي عليه، وهو الاحساس بأنه منذور للسلطة، ومهيأ لدور قيـادي عظيم، لا بـد أن يأتي حينه.

ومنذ حداثته عبر عن ذلك، لا بالتلميح، بل بالجهر المدوِّي:

ستعلمون ما يكون مني ... إن مدَّ من ضبعيَّ طول سنِي
أأدعُ الدنيا ولم تدَعني ... يلعب بي عناؤها المعني
ناطحةً بالجمِّ عام القرن ... نطاح رَوْق الجازىء الأغنِّ(٦٩)
وسِعتُ أيامي ولم تسعني ... أفضل عنها وتضيف عني
ولي مضاءٌ قطُّ لم يخُنيِّ ... ضمير قلبي وضمير جَفني
أحصل من عزمي على التمني ... وليتني أفعل أو لو أني
راضٍ بما يُضْوي الفتى ويضني ... أسُسَ آبائي وسوف أبني
قد عزَّ أصلي ويعزُّ غصني ... غنيتُ بالجود ولم أستغنِ
إنَّ الغنىٰ مجلبةُ للضنِّ ... وللقعود والرضا بالوهنِ
الفقر ينئي والثراء يدني ... والحرص يشقي والقنوع يُغْني
إنْ كنتُ غير قارحٍ فإني ... أبذّ جري القارح المسنِّ
تشهد لي أن الزمان قِرْني ... سوف ترىٰ غبارها كالدَّجنِ

ويواصل:

من قبل أن يَغلقَ يوماً رهني ... متى تراني والجواد خدني
والنصل عيني والسنان أذني ... وأُمِّيَ الدرع ولم تلدني(٧٠)

وكان وهو يرنو إلى المعالي، يعلم جيداً وعورة الطريق وكثرة الأعداء وقلة الناصرين، لكنه هتف في داخله الهاتف فأصغى إليه، فقال وهو في السادسة عشرة:

أمن شوقٍ تعانقني الأماني ... وعن ودٍّ يخادعني زماني
وما أهوى مصافحة الغواني ... إذا آشتغلت بناني بالعنانِ
عدمتُ الدهر كيف يصون وجهاً ... يعرَّض للضراب وللطعانِ

ويقول:

نشرتُ على الزمان وشاح عزٍّ   ترنَّحُ دونه المقلُ الرواني
سأطلع من ثنايا الدهر عزماً   يسيل بهمَّة الحرب العوانِ
ولا أنسىٰ المسير إلى المعالي   ولو نسِيَتْه أخفاف الحواني
وكنَّا لا يروِّعنا زمانٌ   بما يعدي البعاد على التداني (٧١)

وليس هناك اغتراب سياسي، مثل اغتراب الشريف الرضي في نضاله من أجل تحقيق غايته وتنفيذ رسالته، فقد كانت بمواجهته ظروف قاسية، وشروط سياسية أقسى. فالسلطة البويهية التي اعتقلت والده المصلح الكبير، كانت قد أشهرت أسلحة العنف ضد الأشراف، وضد الوجود العربي، فاعترضت طموحات الرضي سلطة شديدة البطش، وشديدة المراوغة، وبالغة الذكاء. كذلك كان أنصاره قلةً. وكانت أكثرية العوام تصفق للسلطان.

وتطلب هدفه السامي منه إبداء المرونة في علاقاته مع الخلفاء والملوك والوزراء، بالقدر الذي رآه مجدياً لتمشية أمور المسلمين، وتحقيق غايات محددة، ترتبط بغايته الكبرى التي أنشد لها ودعا إليها بلا توقف.

لكن مرونته تلك سرعان ما تتحول إلى غضب عاتٍ، عند حصول أي استفزاز صغير أو تعريض به، أو بواحد من أهله، أو عند حصول أي إهمال أو تجاوز أو تطاول عليه من أي سلطان كان.

وعندما يغضب، يدع المرونة جانباً، ويعلو صوت حماسته وهو يذكر أصله ومعدنه الكريمين، فينتفض كملك، أو كخليفة، ويكتسب التحدي في شعره طعم التقريع، تقريع الخليفة الذي يخاطبه، دونما خشية منه.

وفي تلك الفرص النادرة التي يغضبه الخليفة تبرز روح الشريف الرضي، الغنية بكل معاني السيادة العربية، والحق، والكبرياء التي لا تنحني أمام السلطان مهما كانت قوة سطوته وشدة بطشه.

ورغم أن الخليفة الطائع للّه كانت بينه وبين الرضي مودة، إلا أن إثارته له عندما قرَّب بعض أعدائه إليه، جعلته يزمجر غيظاً في قصيدة، مطلعها:

ونمي إليَّ من العجائب أنه ... لعبتْ بعقلك حيلة الخوَّانِ
وتملَّكتْك خديعةٌ من قولةٍ ... غرَّارة الأقسام والأيمانِ
حقاً سمعت وربَّ عينيْ ناظر ... يقظٍ تقوم مقامها الأذنانِ
أين الذي أضمرته من بغضه ... وعقدته بالسرِّ والإعلانِ
أم أين ذاك الرأي في إبعاده ... حنقاً وأين حميَّة الغضبانِ
سبحانَ خالقُ كل شيءٍ معجبٍ ... ما فيكمُ من كثرة الألوانِ
يومٌ لذا وغدٌ لذاك وهذه ... شِيَمٌ مقطعةٌ قوىٰ الأقرانِ
فالآن منك اليأس ينقع غلَّتي ... واليأس يقطع غلَّة الظمآنِ

ثم يبلغ في نقده الذروة فيصيح:

لي مثل ملكك لو أطعتُ تقنعي ... وذوو العمائم من ذوي التيجانِ
ولعلَّ حالي أن يصير إلى عُلىً ... فالدوح منبتها من القضبانِ
فاَحْذرْ عواقب ما جنيتَ فربما ... رمت الجناية عرض قلب الجاني
أعطيتُك الرأي الصريح وغيره ... تنساب رغوته بغير بيانِ
وعرضتُ نصحي والقبول إجازةٌ ... فإذا أبيتَ لويتُ عنك عناني
ولقد يطول عليك أن أصغي إلى ... ذكراك أو يثني عليك لساني (٧٢)

ويعد افتخاره بنفسه وهو يمدح الخليفة القادر باللّه خير بيان عن اغترابه السياسي من موقع المجد، فقد ختم قصيدته التي كان مطلعها:

لمن الحدوج تهزُّهنَّ الأينقُ ... والركب يطفو في السراب ويغرقُ

بثلاثة أبيات تلخص عظمة نفس الشاعر الرضي وشاعريته المجيدة، وهي:

عـطفاً أمـير المؤمنـين فـإننـا ... في دوحـة العليـاء لا نتفـرَّقُ
مـا بيننـا يـوم الفخار تفـاوتٌ ... أبـداً كـلانـا في المعـالي مُعْـرِقُ
إلاَّ الخـلافـةُ ميَّـزتـك فـإنني ... أنـا عـاطـلٌ منهـا وأنت مـطوَّقُ

وتوضح العلاقة بين الشاعر الشريف الرضي وأبي اسحـاق ابراهيم بن هـلال الصابي الكـاتب والشاعـر عن مدى تمكن هـدف الخـلافـة من نفس الشاعر الرضي، ومن نفوس المريدين والموالين والأنصار.

فالخلافة لم تكن مجرد رغبة، أو نزوة، أو حلم عابر لشاعر ذي صبوات ورغبات وآمال، بل كانت دعوة علنية وسريـة، شغلت اهتمام الشـاعر طـوال حياته، وشغلت العديد من الأتباع والمؤيدين.

وكان تأييد أبي اسحاق الصابي، لخلافة الشريف الرضي، رغم التبـاين في الديانة، دليلاً عـلى رسوخ حق الشريف الـرضي في الخلافـة واقتناع بعض الناس بهذا الحق، لاسيما المرموقين منهم.

ولم يكن إعجـاب الشريف الرضي بـأبي اسحـاق الصـابي، نـاجمـاً عن تجاوب عاطفي لدعوة الصـابي إلى حقه في الخـلافة، بـل هو إعجـاب متصل بـروح الدعـوة، وبمراحـل انطلاقهـا، وتطورهـا، واستمرارهـا، وتغلغلها في نفوس الأنصار.

ويتجـاهل النقَّـاد والمحللون حقيقـة قـويـة وهي أن الصـابي لم يتـوسَّم الخلافة في الشريف الرضي وهو في العمر المناسب، بـل في مرحلة مبكـرة من العمر ، هي بـداية العقـد الثاني من عمـر الـرضي وكـان الصـابي في أواخـر الثمانين من عمره، بما في ذلك من دلالات، فخاطبه حينذاك قائلاً:

أبـا حسنٍ لي في الرجـال فـراسـةٌ ... تعـودت منها أن تقـول فتصـدقـا
وقـد خبَّرتني عنـك أنْـك مـاجـدٌ ... سـترقى من العلياء أبعـد مـرتقى

فـوفَّيْتـك التعـظيم قبـل أوانـه وقلتُ أطـال اللّه للسيـد البقـا
وأضمـرتُ منه لفـظةً لم أبـح بهـا إلى أن أرى إطـلاقهـا ليَ مـطلقـا
فإن عشتُ أو إن متُّ فاذكر بشارتي وأوجبْ بها حقاً عليـك محقَّقـا
وكن ليَ في الأولاد والأهل حافظاً إذا ما آطمأنَّ الجنب في موضع النقـا

وكان جواب الشريف الرضي:

سننتُ لهـذا الرمـح غربـاً مذلَّقـا وأجـريتُ في ذا الهنـدوانيِّ روْنقـا
وسـوَّمتُ ذا الطرف الجـواد وإنمـا شرعتُ لـه نهجـاً فخبَّ وأعنقـا
فليس بسـاقٍ قبل ربعـك مـربعـاً وليس بـراقٍ قبـل جـرِّك مـرتقىٰ
وإن صــدَّقتْ منـه الليـالي مخيلةً تكن بجـديد المـاء أوَّل من سقىٰ

إلى أن يقول:

فإن راشني دهري أكن لك بازيـاً يسرُّك محصـوراً ويرضيـك مطلقـا
أُشـاطـرك العـزَّ الـذي أستفيـده بصفقـة راضٍ إن غنيت وأملقـا
فتـذهب بالشـطر الـذي كلُّه غنىً وأذهب بـالشطر الـذي كلُّه شقـا
وتأخذ منه ما أنام وما حـلا وآخذ منـه ما أمرَّ وأرَّقا

. . . إلخ.

إن الحقيقـة المـاثلة في بشـارة الصـابي تشـير إلى مـا هـو أبعـد من حق الشريف الـرضي، من حيث الجدارة والتـأهيل للخـلافة الإسـلامية، أي أنها تشـير إلى حق الشريف الـرضي المـوروث، والثـابت، إضـافـة إلى الأهليـة والجدارة.

بكلمة أخرى أن الصابي وهو شيخ الكتَّاب، والشـاعر المعـروف، كان يؤمن بحق اسرة الشريف الرضي، (أباً عن جد) في الخلافة، وإن هذا الإيمان

يمتد في حياة الصابي، وفي تاريخ علاقته بوالد الشريف الرضي، السيد الموسوي، بجذور قديمة.

فالبشارة لم تكن وليدة التفرس، كما يرى البعض، بل كانت وليدة الإيمان بالحق الموروث سواء أكان الرضي طفلاً (في عمره) أو مراهقاً، أو في ما بعد العقد الثاني من العمر.

إن تعليل البشارة بالإيمان بحق الشريف الرضي في الخلافة، حتى قبل أن يكون الرضي نفسه شخصاً مرموقاً، أكثر دقة من تعليل البشارة بالفراسة، وبخاصة من قبل شخص صابئي لا تشغله أمور الخلافة الإسلامية، كثيراً.

ويتصل ذلك بقضية أخرى ذات أهمية، وهي أن كرامات الأبرار من أهل البيت، كثيراً ما فعلت الأعاجيب في تغيير أفكار وعواطف اناس غير مسلمين، بعد الاحتكاك بهم، والإطلاع على صفاتهم الشريفة، فانتقلوا إلى حظيرة الإسلام بسبب التأثر بالقدوة الصالحة. وأصبح إنتماؤهم الإسلامي ضرباً من الإيمان الكبير بإمامة الأئمة الأبرار والولاء لهم.

ومع أن الدكتور زكي مبارك يرجع بالعلاقة إلى بدايتها، وهي صداقة الصابي لأبي أحمد الموسوي والد الشريف، وقبل أن يولد الشريف بأكثر من أربع سنوات، إلا أنه لم يعرض العمق الروحي للعلاقة. فظهرت وكأنها صداقة قوية، أثرت على عواطف الشريف الرضي وتعززت أكثر بسبب اعتقال الصابي من قبل عضد الدولة، مثلما اعتقل والده من قبله أيضاً[٧٣].

فالصداقة والمأساة المشتركة والرابطة الأدبية هي جملة العوامل التي وقف عندها د. زكي مبارك في تفسير الرابطة بين الصابي والرضي. إلا أن هذه العوامل ليست قوية التأثير إلى الدرجة التي يندفع فيها شيخ صابئي مهم الشخصية، حاد الموهبة، إلى الإنحياز التام إلى الشريف الرضي، والدعوة إلى حقه في الخلافة الإسلامية مع صعوبة هذه الدعوة بالنسبة إلى الصابئي في

وسط إسلامي يمور بالصراعات المذهبية.

وفي الحق، أن دعوة الصابي إلى خلافة الشريف كان يمكن أن تكون عبئاً على الرضي نفسه بسبب مكانته الخاصة بين المسلمين، وحساسية موقفه ودعوته إلى الخلافة، كما أنها كانت عبئاً على الصابىء الذي كان يمكن أن يكتفي بإبداء الود والمحبة، دون المجاهرة بحق الشريف الرضي في الخلافة الإسلامية، ذلك الحق الذي كان يناصبه العداء، الخليفة والسلطة وأناس آخرون. غير أن الإيمان إلى درجة الولاء هو الذي قاد الصابي إلى المجاهرة، وهو الذي أفاض أعماق الشريف الرضي بالعرفان والحب الشديد لأبي اسحاق الصابئي، دون حذر أو تحسب.

وكانت قصيدة الشريف الرضي في رثاء أبي اسحاق الصابي من روائع المراثي المشحونة بالمغازي (*):

أعلمت من حملوا إلى الأعوادِ ... أرأيتَ كيف خبا ضياء النادي
جبل هوى لو خرَّ في البحر اغتدى ... من وقعه متتابع الأزبادِ
ما كنتُ أعلم قبل حطِّك في الثرىٰ ... أنَّ الثرىٰ يعلو على الأطوادِ
بعداً ليومك في الزمان فإنَّه ... أقذى العيون وفتَّ في الأعضادِ
لا ينفد الدمع الذي يبكى به ... إنَّ القلوب له من الامدادِ
كيف انمحى ذاك الجناب وعطِّلتْ ... تلك الفجاج وظلَّ ذاك الهادي
طاحت بتلك المكرمات طوائحٌ ... وعدت على ذاك الجواد عوادي
قالوا أطاع وقيد في شطن الردى ... أيدي المنون ملكت أيَّ قياد(٧٤)
من مصعب لو لم يقدْه إلهه ... بقضائه ما كان بالمنقادِ(٧٥)

ويقول:

اعْززْ عليَّ بأن يفارق ناظري ... لمعان ذاك الكوكب الوقَّادِ
اعْززْ عليَّ بأن نزلتَ بمنزلٍ ... متشابه الأمجاد والأوغَادِ

ويقول:

عمري لقد أغمدت منك مهنَّداً ... في الترب كان ممزَّق الأغمادِ
قد كنتُ أهوى أن أشاطرك الردى ... لكن أراد الله غير مرادي
ولقد كبا طرف الرقاد بناظري ... أسفاً عليك فلا لعا لرقادِ[٧٦]
ثكلتك أرضٌ لم تلد لك ثانياً ... أنَّى ومثلك معوز الميلادِ
إنَّ الدموع عليك غير بخيلةٍ ... والقلب بالسلوان غير جوادِ
سوَّدتَ ما بين الفضاء وناظري ... وغسلت من عينيَّ كلَّ سوادي
ريُّ الخدود من المدامع شاهدٌ ... أنَّ القلوب من الغليل صوادِ
ما كنتُ أخشى أن تضنَّ بلفظةٍ ... لتقوم بعدك في مقام الزادِ
ماذا الذي منع الفنيق هديره ... من بعد صولته على الأذوادِ[٧٧]
ماذا الذي حبس الجواد على المدى ... من بعد سبقته إلى الآمادِ
ماذا الذي فجع الهمام بوثبةٍ ... وعدا على دمه وكان العادي
قل للنوائب عدِّدي أيامه ... يغني عن التعديد بالتعدادِ
حمَّال ألوية العلاء بنجدةٍ ... كالسيف يغني عن مناط نجادِ
لقضى لسانك مذْ ذوتْ ثمراته ... أن لا دوام لنضرة الأعوَادِ
وقضى جنانك مذْ قضت وقداته ... أن لا بقاء لقدح كلِّ زنادِ
بقيتْ أُعيجازٌ يضلُّ تبيعها ... ومضتْ هوادٍ للرجال هوادِ[٧٨]
يا ليت أني ما اقتنيتك صاحباً ... كم قنيةٍ جلبتْ أسىً لفؤادي
برد القلوب لمن تحبُّ بقاءه ... مما يجرُّ حرارة الأكبادِ
ليس الفجائع بالذخائر مثلها ... بأماجد الأعيان والأفرادِ
ويقول من لم يدرِ كنهكَ أنَّهم ... نقصوا به عدداً من الأعدادِ
هيهات أدرج بين برديك الردى ... رجل الرجال وأوحد الآحادِ
لا تطلبي يا نفس خلاًّ بعده ... فلمثله أعيا على المرتادِ
فقدتْ ملاءمة الشكول بفقده ... وبقيتُ بين تباين الأضدادِ

ما مطعم الدنيا بحلو بعده — أبداً ولا ماء الحيا ببرادِ(٧٩)
الفضل ناسب بيننا إن لم يكن — شرفي مناسبه ولا ميلادي
إن لم تكن من أسرتي وعشيرتي — فلأنت أعلقهم يداً بودادي
لو لم يكن عالي الأصول فقد وفى — شرف الجدود بسؤدد الأجدادِ(٨٠)
لا درَّ درِّي إن مطلتك ذِمَّةً — في باطنٍ متغيِّبٍ أو بادِ
إنَّ الوفاء كما اقترحت فلو تكن — حيًّا إذن ما كنت بالمزدادِ
ليس التنافث بيننا بمعاودٍ — أبداً وليس زماننا بمعادِ(٨١)
ضاقت عليَّ الأرض بعدك كلُّها — وتركتَ أضيقها عليَّ بلادي
لك في الحشا قبرٌ وإن لم تأوه — ومن الدموع روائحٌ وغوادِ
سلُّوا من الأبراد جسمك وآنثني — جسمي يسلُّ عليك في الأبرادِ
كم من طويل العمر بعد وفاته — بالذكر يصحب حاضراً أو بادي
ما مات من جعل الزمان لسانه — يتلو مناقب عوَّداً وبوادي
فآذهب كما ذهب الربيع واثره — باقٍ بكلِّ خمايلٍ ونجاد
لا تبعدنَّ وأين قربك بعدها — إنَّ المنايا غاية الأبعادِ
صفح الثرى عن حُرِّ وجهك إنه — مغرىً بطيِّ محاسن الأمجادِ
وتماسكت تلك البنان فطالما — عبث البلى بأناملِ الأجوادِ
وسقاك فضلك أنَّه أروى حياً — من رائحٍ متعرِّسٍ أو غادِ(٨٢)
جدثٌ على أن لا نبات بأرضه — وقفت عليه مطالب الروَّادِ

في هذه القصيدة يتفرد الشريف الرضي في طبيعته النجيبة العالية، فهو يوجه أصدق الرثاء (وهو ما تطفح به القصيدة) إلى أبي اسحاق الصابي، رغم المكانة الإسلامية المرموقة للشاعر الرضي، والتي تجعله في موضع النقد واللوم، وبالأخص من قبل الغرماء والحاقدين وحاسدي الشريف الرضي على مكانه وسمعته.

ولم تكن الرثائية على هذا المستوى من التأسِّي والتفطر ألماً وحسرة، لو لم

تكن لأبي اسحاق في نفس الشاعر الرضي مكانة خاصة، هي مكانة المريد، والموالي، والمخلص، والداعية الذي لم تقعده ديانته المعروف بها، وظروفه المحرجة عن الإفصاح عن دعوته والجهر بها، والعمل على إذاعتها.

وظل الشريف الرضي يذكر ولاء أبي اسحاق الصابي لاسرته وله، فظل يوافيه بالشعر الرثائي، كلما رأى قبره، معبِّراً بذلك عن أصالة الطبع، وعلوِّ النفس التي كانت فوَّارة بالآمال والأماني. وثمة ما يضاف إلى الأصالة والنجابة في طبيعة الشريف الرضي وهو يرثي أبا اسحق الصابي، وهو صفته القيادية غير الملموسة في رثائياته، ولكنها مستشفَّة من خلال رعايته لأشخاص معينين، لم يذكر أسماء بعضهم، وهي رعاية القائد للجندي، وتعاطفه معه، وحدبه عليه، وترحُّمه على ذكره.

وقد أصاب الصابي من رثاء الشريف الرضي من صدق الوجد ما يحمل أكثر من دلالة على قوة الآصرة، ومضمون الروحي والسياسي.

وبعد أعوام من موت الصابي، مرَّ الرضي على قبره، فقال:

أيعلم قبرٌ بالجنينة أننا ... أقمنا به ننعي الندى والمعاليا[٨٣]
مررنا به فآستشرفتنا رسومه ... كما آستشرف الروض الظباء الجوازيا
وما لاح ذاك الترب حتى تحلَّبت ... من الدمع أوشالٌ ملأن الأماقيا[٨٤]
نزلنا إليه عن ظهور جيادنا ... نكفكف بالأيدي الدموع الجواريا
ولما تجاهشنا البكاء ولم نطق ... عن الوجد إقلاعاً عذرنا البواكيا
أقول لركب رائحين تعرَّجوا ... أُريكم به فرعاً من المجد ذاويا
أُلُّموا عليه عاقرين فإننا ... إذا لم نجد عقراً عقرنا القوافيا
ولو أنصفوا شقُّوا عليه ضمائراً ... وجزُّوا رقاباً بالظبا لا نواصيا
وقفنا فأرخصنا الدموع وربَّما ... تكون على سوم الغرام غواليا
ألا أيُّها القبر الذي ضمَّ لحده ... قضيباً على هام النوائب ماضيا[٨٥]

هل آبن هلال منذ أودى كعهدنا	هـلالاً على ضـوء المطالـع بـاقيـا
وتلك البنان المورقـات من الندى	نـواضب مـاءٍ أم بـواقٍ كـما هيـا
ومـا كنت آبِي طـول لبثٍ بقـبره	لـو آني إذا استعديتـه كان عـاديـا

وأضاف:

خلا بعدك الوادي الذي كنتَ أُنسه	وأصبـح تعـروه النـوائب واديـا
أراحت علينـا ثلَّة الوجـد تـرتعي	ضـمائـرنـا أيَّـامهـا والليـاليـا
رضيت بحكم الدهر فيك ضرورة	ومن ذا الذي يغدو بما ساء راضيا
وطاوعت من رام آنتزاعك من يدي	ولو أجد الأعوان أصبحت عاصيا
وطامنتُ كيما يعبر الخطب جانبي	فـألقى على ظهـري وجرَّ زمـاميـا
رثيتك كي أسلوك فآزددت لـوعةً	لأن المـراثي لا تسـدُّ المـرازيـا
وأعلمُ أنْ ليس البكـاء بنـافـعٍ	عـليـك ولكـنِّي أُمنِّي الأمـانـيـا

وترد المعاني الوافرة للحب والتقدير، وهي ترعى للصابي مجداً، لم يكن مقصوداً، لو لم يكن للصابي من أكثر الدعاة تحمساً لحق الشريف الرضي في الخلافة.

وبعد موت الصابي بنحو تسع سنين مر الشريف الرضي على قبره فقال:

لـولا يذمُّ الـركب عنـدك مـوقفي	حيِّيتُ قـبرك يـا أبـا اسحـاقِ
كيف آشتياقك مـذ نأيت الى أخٍ	قلق الضمـير إليـك بـالأشـواقِ
هـل تذكـر الزمن الأنيق وعيشنـا	يحـلو عـلى متـأمِّـلٍ ومـذاقِ
وليـالي الصبـوات وهي قصـائـرٌ	خـطف الوميض بعـارضٍ مبراقِ
لا بـدَّ لـلقـرنـاء أن يـتزايـلوا	يـومـاً بغـدر قـليً وعـذر فـراقِ
أمضي وتعطفني إليـك نـوازعٌ	بتـنفُّسٍ كتـنفُّس العـشَّـاق

وأذود عن عيني الدموعِ ولو خلت لجرتْ عليك بـوابـلٍ غيـداقِ
ولـو أنَّ في طـرفي قـذاةً من ثـرى وأراك مـا قـذيتُّهـا من مـاقي
إنْ تمض فـالمجد المـرجَّب خـالـدٌ أو تفنَ فـالكلمُ العـظام بـواقي

الجذر القومي للإغتراب السياسي للشاعر الشريف الرضي:

إرتكز الإغتراب السياسي للشريف الرضي على أصل قومي للإغتراب، فهو من حيث الهويـة القوميـة عربي الأصـل والنشأة، وكـذلك عـربي النزعـة والإتجـاه، وهو ابن أرومـة عربيـة قحـة، حملت لـواء المجـد العـربي. أي أن عروبة الشريف ليست انتماءً قومياً تقليدياً، بل هو إنتماء قومي ثوري، متجذِّر في أرضية عربية متينة، وفي تاريخ عربي مجيد وعـريق، حافـل بالـدروس التي تؤكـد عـلى البعث القـومي، للتخلص من الجـزر الحضـاري، والهيمنـات الأجنبية.

وبدت الغربة القومية ماثلة في تكالب الغزاة المعتدين من الفرس والترك على العراق وأقسام عديدة في المنطقة العربية، لـلإنتقام من العـرب والثأر منهم، من جانب، وماثلة من الجانب الآخر في سرقة السلطة من أيدي العرب للتحكم بهم وتكريس السيطرة على رقابهم.

وقـد جـاب الشريف الـرضي السلطة الأجنبيـة، مهـما كـان بـرقعهـا الآيديولوجي دينياً من الناحية الشكلية، مجابهة سياسية، وثقافيـة، وسلوكية، معطياً لموقفه القومي طابع التحدي، ومواصلة الصراع.

وهو في أغلب شعره الإفتخـاري كان يبثُّ أفكـاره العربيـة، لا بصورة افتخار شخصي منعزل، وإنما في موقف موحد: فردي وقومي. فهـو إذ يفتخر بنفسه وبأهله، فإنما يرمي بكل ثقله التاريخي لصالح أمته العربية، كـما أنه في الوقت عينه يذكر مجد العشائر العربية وبطولاتها في معرض الإفتخار الذاتي.

فقصائد شعره التي تتضمن أفكاره العروبية، ونداءاته، واستطراداته التاريخية، وأمانيه العربية تربط الذاتي والقومي ربطاً محكماً، وطبيعياً تماماً.

فترد أشعاره عن شجاعة قبائل عربية بالقوة الإفتخارية نفسها التي يرد فيها ذكر شجاعته، وشجاعة قومه، أو بالإسترسال نفسه. وغالباً ما تنمو القصيدة وهي تنتقل من شجاعة الأهل والقوم إلى شجاعته الشخصية، أو بالعكس، لأن الرابطة بين الذات والأهل والعروبة، هي رابطة موحدة، تشكل ركيزة عضوية واحدة في حياة الشريف الرضي. ويأخذ الإفتخار، في هذا المنظور، قيمته الخاصة منزَّهاً عن تمجيد الذات المرضي، الذي وقع صرعى فيه، وبه، شعراء تياهون بأنفسهم عجباً، أصابهم مسٌّ من جنون العظمة، فأطار صوابهم، وأضلَّهم، وأفقدهم القضية الجوهرية للإنتماء إلى شعوبهم وأوطانهم.

وتزداد أهمية إفتخارات الرضي الشخصية والعائلية والقومية، لأنها لا ترد في مناسبات تبادل إلقاء الشعر في النوادي والأسواق الأدبية، وفي فترات الترف وكسل الرفاه، وإنما وردت في زمن التحدي وبمواجهة السلطان الأجنبي الجائر.

إن الإلحاح على الفضائل القومية للعرب، رغم أن العرب في حالة القهر القومي، مغلوبون على أمرهم، هو سلوك ثوري يرقى إلى مستوى المبدأ.

وليس غريباً إن كان الشريف الرضي يتبجَّح بعروبته، وبشجاعة قومه، وجهاً لوجه أمام السلطان البويهي. أَوَلَيْسَ هو القائل وهو فوق العاشرة من عمره بقليل:

المجد يعلم أن المجد من أَرَبي ... ولو تماديتُ في غيٍّ وفي لَعِبِ
أنِّي لمن معشر إنْ جُمِّعوا لعلىً ... تفرَّقوا عن نبيٍّ أو وصيٍّ نبي

إذا هممتُ ففتِّشْ عن شَبـا هِمَمي تجـدْه في مُهجات الأنجم الشُّهُبِ

فما الذي يصعب عليه أن يقوله بعدئذٍ؟!

إن روح التحـدي التي ترعـرعت في جسده، كـانت تأخـذ من حقه في المسؤولية قوة متنامية، فكان شعره يـزداد حماسـة وفخراً وشعـوراً بالـرئاسـة، فيقول وهو في العشرين تقريباً:

وعـن قــربٍ سيشغـلني زمــاني بـرعي النـاس عن رَعْي القُـرومِ
ومــا لي مـن لقــاء المـوت بُــدٌّ فـــما لي لا أشــدُّ لــه حــزيمــي

ويقول:

مــا أنــا لـلعـليــاء إنْ لم يـكـنْ من وَلَـدي مـا كــان من والـدي
ولا مشتْ بي الخيــل إنْ لم أطــأْ سريـــر هــذا الأغـلب المــاجـدِ

و «يلاحظ في البيت الأخير أنه يعرِّض بالخليفة..»[٨٦].

غير أن أعظم ما في مسار التحدي، التذكـير ببطولـة العرب في معـركة (ذي قـار) التي انتصف فيهـا العــرب لأنفسهم من الفـرس، أمــام الحـاكم البويهي نفسه، وكان يروم في ذلك استفزاز الحاكم، وتحقيره.

ففي قصيدته الموجهة إلى الملك بهاء الـدولة، (رغم أنها قيلت وهي في معرض مدح) جابهه بالذكرى التاريخية العريقة لمعركة (ذي قار)، ومن المؤكـد أن ما كان الملك بهاء الدولة قد سمعه، وعدَّه صـلافة ووقـاحة، أو أكـبر من ذلك، كان في عرف الشريف الرضي مبدأً، وواجباً، وقضية.

إنَّ الذكريات التاريخيـة تعيد حسـابات الأذهـان، وتعيد تـوزيع أوراق السياسة. فـيرجع الحـاكم إلى حجمه، حـين يسمع صـوت التاريـخ، ويكبر المحكوم ويعلو اسمه من خلال الحكمة المنطوقة في أحداث التاريـخ، تاريخـه

القومي بالذات.

ويمكن أن يُتَخَيَّل كيف ارتعدت فرائص الملك وهو يسمع صوت الشاعر المجلجل، صوت السيد الشريف بشرفه، والرضي برضوان اللّه عليه، وهو يذكره بذي قار، وفي التذكير تهديد، ووعيد، وثقة لا تقهر بالمستقبل العربي، رغم فداحة المذلّة القومية في ظل العهد البويهي.

كان الشريف الرضي يطلق إنذار التاريخ الآتي، بواسطة صافرة الذكريات التاريخية، صافرة ذي قار التي كانت تعدل ألف بوق، فقال:

أذكرونا يوم ذي قار وقد | أقبلوه عارض الطعن برد
رحض الأغلف في تياره | ورد العلج وما كان يرد[87]
يصطلي نار طعانٍ مضة | أوقدت فيها نزار بن معد[88]

وتظل المقابلة دائمة الحضور بين العرب المسلمين والفرس والكفار، بين معركة ذي قار والهيمنة البويهية، بين الإسلام والكفر، كلما ارتفع الحس السياسي في شعر الشريف الرضي، وتسرع حلقات السلسلة الواحدة للحس القومي العربي في إشهار نفسها تباعاً، حلقة، حلقة، بالترابط العضوي، الحتمي، الوثيق، الذي يحتل موقعه في صفوف الكلمات، وفي موسيقى التفعيلة، وجرسها، فما أن يرد ذكر معركة ذي قار، حتى يرد حديث الشاعر عن نفسه، وعن قومه، وعن قريش، وعن الخيل والطعان والحرب، وعن المطلب السامي الذي لا يخشى من أجل تحققه الهلاك.

ففي قصيدته ـ مثلاً ـ:

إلى كم لا تلين على العتاب | وأنت أصمُّ عن ردِّ الجوابِ
حذار أن تغالبني غلاباً | فإني لا أدر على الغضابِ

يذكر معركة ذي قار، مذكراً بالقدرة العربية الغلابة، والتي وإن مرت

بأزمات صعبة إلا أنَّها ذات أساس تاريخي :

نذكركم بذي قارٍ طعاناً ... وما جرَّ القنا يوم الكلابِ

فيستعرض ـ أيضاً ـ قريشاً، والصولة العربية، والعقاب العربي الإسلامي القاسي:

عليها كلَّ أبلجَ من قريشٍ ... لبيقٍ بالطعان وبالضِّرابِ
يسير وأرضه جردُ المذاكي ... وجوٌّ سمائه ظلُّ العقابِ
وعندي للعدا لا بدَّ يومٌ ... يذيقهم المسمَّمَ من عقابي
فأنصبُ فوق هامهمُ قدوري ... وأمزج من دمائهم شرابي
وأركزُ في قلوبهمُ رماحي ... وأضربُ في ديارهم قبابي
فإنْ أهلكْ فعن قدرٍ جريءٍ ... وإنْ أملكْ فقد أغنى طلابي

إن حقيقة العربي، في تصورات الشريف الرضي، عميقة المعنى، قوية الدلالة، وراسخة الحضور، مما يمكن الإستنتاج منه، وبسهولة تامة، أن تعامل الشاعر مع هذه الحقيقة، ليس مرحلياً أو مرهوناً بأزمات شخصية تتصل بالمطامح، وإنَّما هي ركن جوهري في منظومة أفكاره، كما أنها موجِّه ومنظم لسلوكه ولكثير من الأفعال التي أقدم عليها، أو كان في نيته الإقدام عليها.

وبالنسبة لكثير من الشعراء قد ترد النزعة العربية بصورة كلمات مفردة، أو أبيات شعر محدودة، لمناسبة معينة، لكنها عند الشريف الرضي ذات أولوية فكرية ومصيرية تكتسح كثيراً من الأحيان الإهتمامات العاطفية الأخرى، لتظل سيدة الموقف في القصيدة.

ويقود التطابق مع القضية إلى إبداعية متقنة، تقوم على وحدة المعنى والمبنى. فالصدق الفكري والنفسي يؤدي إلى الصدق الفني، وكل صدق لأكثر

جدية يولِّد صدقاً آخر، وهكذا تفتتح الطرق سلسلة الولادات الجديدة، والمتآخية.

وكيف يستطيع الشاعر (والفنان عموماً) ضبط العلاقة بين الموصوف والصفة، إذا لم يكن هو موصوفاً بصفة؟!

وبما لا يقبل الشك، إن التوصل إلى معرفة صفات الأشياء هو من ثمرات الواقعية، أي قدرة الرائي على استنتاج المرئي بمجموع أو ببعض صفاته.

غير أن الوصول إلى التشبيهات والإستعارات يدلل على ما هو أبعد وأهم من الواقعية الإلتقاطية التي تأخذ بجماع المنظورات، وتعيد طرحها في الفن والأدب. ذلك لأن التشبيهات تنبثق من الأصالة الحقيقية للشاعر والفنان. وعلى صعيد السياسة (في الشعر والأدب والفن) لا يتأتى للسطحيين والإنتهازيين، والتوفيقيين، وصيادي الفرص النفعية، أن يقدموا تشبيهات واستعارات رشيقة، أمينة، عذراء، باهرة الإختصار، والصياغة والتدليل. قد يقدرون على تنميق أكاذيب معسولة، لكنهم هيهات، هيهات، أن يستطيعوا التشبيه والإستعارة بنقاوة إشعاعات الشمس الفجرية وهي تعانق الأرض التي أنعمت على الشمس بفضيلة الشروق والغروب، فمنح الناس الجمالين في الفجر والمساء للشمس ونسوا أن فدائية الأرض الدائرة وراء كل ذلك.

تتصل ـ إذن ـ نقاوة التشبيه والإستعارة، بنقاوة القائل وصفاء انتساباته إلى نفسه وإلى مجتمعه، وإلى قضيته.

هكذا يمكن أن نفهم بيت شعر واحد، يساوي أكثر من عشرات المقالات والأشعار، وحتى الدواوين. قاله الشريف الرضي وهو يجسد عروبته، والمضمون الذي يجب أن تكون عليه:

إذا عــربيٌّ لم يكن مثــل سيـفــه مضـاءً على الأعـداء أنكـره الجـدُّ

في هذا البيت تضمين أكبر من المطابقة بين العربي والسيف، وهو ليس اختـراعاً، إنَّمـا هو من وحي الفـطرة العجيبة، فـطرة عربيـة الشريف الرضي المزكَّاة بالعرفانية التاريخية والسياسية.

ثمة التصافات جميلة لو قلنا إن العربي كالسيف، وأجمل منها لو قلنا إن السيف كالعربي، لكن قولة الشريف الـرضي: «إذا عربيٌّ لم يكن مثـل سيفه» خرجت عن نطاق البلاغة الشعرية، الوصفية، أو الاستعارية، خـرجت من المعـرفة المتـدبرة، ودخلت في عـظمة الفـطرة النبيلة، التي هي المصدر الأول لكل معرفة منزهة.

لا يحس المتلقي إلا بـالإحساس الـواحد، وهـو يقـرأ أو يسمـع إنشـاد الشريف الـرضي، أن العربي والسيف تـوأمـان ولـدا في اللحـظة الـواحـدة، وبالصورة الواحدة، وبالأجل الواحد الذي لا مبدِّل له.

فالعربي سيف، والسيف عربي، وهما منذ الأزل العربي كائن واحد، لا يصلح هذا بغير (ذا) ولا (ذا) بغـير هذا. وان مجـرد القول بـ (هـذا) و(ذاك) يعني المباعدة التي لا تُقبل.

وإنها لحقيقة تاريخية مؤكدة أن العرب حينما (وكلما) نسوا وتناسـوا معنى القوة في هذه المطابقة بين العربي وسيفه، كان السقوط مصيرهم المداهم.

ففترة الإزدهار العربي هي فترة تطبيق المقولة التي جلجل بهـا الشاعـر الشريف ابن الشريف. أما فترات الإنحطاط، والإنهيار، فهي التي افترق فيها العربي عن سيفه، في تياه الغفلة.

أمـا: ماذا قـالت القصيدة قبـل أن تصل إلى حكمـة البيت المـذكـور، فذلك ما يعنيه التدرج العزيز لمرقى الحب المفجوع الذي يبتدىء بقوة حكمـة

المطلع، فتأتي الأبيات المتلاحقة وكأنها مطالع وخواتيم زاهرة ومضربة حيثما تواصلت مظنة العبقرية للشاعر الملهوف الذي وضعه (العز) بين الطرب والخذلان مثل زيت يحترق:

لأيِّ حبيبٍ يحسن الرأي والودُّ ... وأكثر هذا الناس ليس له عهدُ
أرى ذمِّيَ الأيام ما لا يضرُّها ... فهل دافعٌ عني نوائبها الحمدُ
وما هذه الدنيا لنا بمطيعةٍ ... وليس لخلقٍ من مداراتها بدُّ
تحوزُ المعالي والعبيد لعاجزٍ ... ويخدم فيها نفسه البطل الفردُ
أكُلُّ غريبٍ لي بعيدُ بوده ... وكلُّ صديقٍ بين أضلعه حقدُ
ولله قلبٌ لا يبلُّ غليله ... وصال ولا يلهيه عن خلِّه وعدُ
يكلِّفُني أن أطلب العزَّ بالمنى ... وأين العلى إن لم يساعدني الجدُّ
أحنُّ وما أهواه رمحٌ وصارمٌ ... وسابغةٌ زغفٌ وذو ميعةٍ نهدُ[٨٩]
وليس فتىً من عاق عن حمل سيفه ... أسارٌ وحلَّاهُ عن الطلب القدُّ
إذا كان لا يمضي الحسام بنفسه ... فللضارب الماضي بقائمهِ الحدُّ
وحوليَ من هذا الأنام عصابةٌ ... تودُّدها يخفى وأضغانها تبدو
يسرُّ الفتى دهرٌ وقد كان ساءه ... وتخدمه الأيام وهو لها عبدُ
ولا مال إلا ما كسبتُ بنيله ... ثناء ولا مالٌ لمن لا له مجدُ
وما العيش إلا أن تصاحب فتية ... طواعن لا يعنيهم النحس والسعدُ
إذا طربوا يوماً إلى العزِّ شمَّروا ... وإن ندبوا يوماً إلى غارةٍ جدُّوا
وكم ليَ في يوم الثويَّة رقدةٌ ... يضاجعين فيها المهنَّد والغمدُ
ولو شاء رمحي سدَّ كلَّ ثنيَّةٍ ... تطالعني فيها المغاوير والجردُ
ألا ليت شعري هل تبلِّغني المنى ... وتلقى بي الأعداء أحصنةٌ جردُ
جوادٌ وقد سدَّ الغبار فروجها ... تروح إلى طعن القبائل أو تغدو
خفافٌ على إثر الطريدة في الفلا ... إذا ماجت الرمضاء واختلط الطردُ
كأنَّ نجوم الليل تحت سروجها ... تهاوى على الظلماء والليل مسودُّ

يعيد عليها الطعن كلُّ آبن همَّةٍ	كأنَّ دم الأعداء في فمه شهدُ
يضارب حتى ما لصارمه قوى	ويطعن حتى ما لذابله جهدُ
تقرَّب لا مستحقباً غير قوته	ولا قائلا إلا لما يهب المجدُ
ولا خائفاً إلا جريرة رمحه	ولا طالباً إلا الذي تطلب الأسْدُ
إذا عربيٌّ لم يكن مثل سيفه	مضاء على الأعداء أنكره الجدُّ

ويأخذ التصعيد مداه في البيت الأخير، ويلحقه بصورة ثانية:

وما ضاف عنه كلُّ شرقٍ ومغربٍ	من الأرض إلا ضاق عن نفسهِ الجلدُ

لقد كان العرب يسيحون شرقاً وغرباً وهم يدَّرعون بالحق، يحملون راية الحق، ويشهرون سيوف الحق، فخطوا بأقلامهم، مع سيوفهم، رسوم الحضارة العربية المجيدة، وأبعادها.

ثم يبدأ ذكر الإحباط، وترتدُّ الصور الشعرية إلى الحزن الشخصي، والغربة التي لا تفارق:

إذا قلَّ مال المرء قلَّ صديقه	وفارقه ذاك التحنُّن والودُّ
وأصبح يغضي الطرف عن كلِّ منظرٍ	أنيق ويلهيه التغرب والبُعْدُ

فما لي وللأيام أرضى بجورها	وتعلم أني لا جبانٌ ولا وغدُ
تغاضي عيون الناس عني مهابةً	كما تتقي شمس الضحى الأعين الرمدُ

إنها عربية المهابة إذن!

فائدة: (المال مادة الشهوات)

إن قضية الخلافة التي سيَّرت الشريف الرضي في دروب الإغتراب، والإحباطات القوية، تختلف ـ من حيث المطالبة بها أو الإعتقاد بالحق فيها ـ من راغب إلى طالب، ومن شخص إلى آخر. فهي قد تكون لدى البعض

نمطاً من شهوة السلطة التي تحرِّك المطالبة بها بقوة الدوافع والتطلعات السياسية الذاتية، وهي ـ في الغالب ـ تجمع عدة شهوات ورغبات تسلطية وتملكية متعددة، تكون بؤرتها الكبرى والأساسية شهرة السلطة، والرغبة بالإمارة، وترافقها شهوة تملك المال والثروات المادية بأنواعها لكي تخدم الأموال والأملاك مشروع الإمارة، وتجسد الرغبات الذاتية السرطانية المتمثلة في الإحتياز والسيطرة وتملك الرقاب والأموال على حدِّيّ سواء.

وبلا شك إن الموقف من المال يعكس إلى درجة كبيرة الطبية السياسية والأخلاقية لدعاة السلطة، والإمارة. لأن فهم فائدة المال ومكانته وحدوده يكشف عن طبيعة الشخص ومواقفه، وآرائه، ونوع علاقاته بالبشر وبالحياة.

وبتعبير عام إن الأفكار التي تتعلق بالمال وسبل اقتنائه وزيادته، وسبل استخدامه وتوظيفه أصبحت تشكل منذ القدم نظرية محددة. لذلك حفلت الكتب المقدسة وأحاديث الأنبياء والمصلحين بمفاهيم وتحليلات وتعليمات عديدة حول المال.

والخلافة في فكر وتطلب الشريف الرضي، رغم تكتمه الشديد في موضوع المناداة بها، ورغم أنها أخدت أسلوب (التورية) أكثر من الإفصاح، هي أقرب إلى الرسالة منها إلى رغبة الحكم، وذلك لأنها متجردة ـ إلى حد بعيد ـ من شهوة السلطة. ويدعم الرأي المذكور موقف الشريف الرضي من المال والمنافع المادية، وهو موقف تعلن عنه قصائده في العديد من المرات، مما يوحي بوجود رؤية محددة ثابتة للشريف الرضي في هذا الخصوص. وتتوحد مع الرؤية ممارسة تطبيقية تعلن عن تجرد الشريف الرضي من كثير من الشهوات التسلطية والتملكية، النابعة ـ حكماً ـ من أنانية مفرطة التضخم والعدوانية.

وتستلهم أفكار الشريف الرضي، الواردة في شعره، عن المال، الكثير

من أفكار (علي بن أبي طالب)، إن لم تكن كلها في هذا الميدان.

وتأخذ حكمة علي بن أبي طالب القائلة: «من ملك استأثر» مكانة مهمة في تشكيلة الآراء والحكم الأخرى، لأنها تربط ربطاً دقيقاً بين ضغط المال من أجل المراكمة وزيادة الثراء، وبين الإستئثار التملكي المتفاقم، الذي تتضخم فيه الأثرة، ويضيع الإيثار.

وما أراده (علي بن أبي طالب) في قوله: «فما جاع فقير إلا بما مُتِّعِ به غني» إيجاد رابطة عدل وشراكة في الحق، لأن المال مال اللّه والعيال عيال اللّه بالنتيجة، وكل ما ليس محموداً إذا لم يكن فيه حق للفقير والمحتاج والمحروم والسائل.

ولا يتوقف الشريف الرضي عن الإعلان بأن الفقر ليس عيباً، وإنَّما العار في المال غير المحمود.

فيقول:

ما الفقر عارٌ وإن كشَّفتَ عورتَه   وإنَّما العار مالٌ غير محمودِ

ويكرر الشريف الرضي قناعته بأن المال وُجد للسخاء والجود، وأن الشجاعة التي لا تعني غير الجود بالنفس ترتبط بصفة الجود بالمال، وبذلك يتحلى المرء بأحسن الصفات وأجملها.

وهو يقول:

لقد عاف أمواله من يجود   وقد طلَّق النفس من يشجعُ

وهو يدينُ الشخص الثري الذي لا يجود:

وجدوا وما جادوا ومحتقبٌ   للَّوم من أثرى ولم يَجُدِ

ويستوحي الشاعر من حكمة علي بن أبي طالب القائلة:

«لكل امرىءٍ في ماله شريكان: الوارث والحوادث»، ما يتوصل بـه إلى إدانة جمع المال خارج الشرط الإنساني الصحيح، فـالمال وسيلة وليس غـاية، أو صنـماً يسجد لـه الإنسان ويخـدمه، وهـو يرتبط بحق الإنسـان في العمل، وبحريته، وبحق الرزق المكفول من اللّه تعالى لابن آدم، فيقول:

ومـا جمعيَ الأمـوال إلاّ غنيمـةٌ لمن عـاش بعدي واتّهـامٌ لـرازقي

ومـا يمنع الشرفـاء والكـرام من جمـع المـال إلا التعفف، والحقّ، فـإذا جاءت الأموال بـين أيديهم، فـإنّهم يخرجـون سلطانها من أفئدتهم، ويجـرون تصريفها بما فيه الخير والفـائدة. وهم يعلمـون خطر المـال أكثر من سـواهم، مهتدين بكلمة علي بن أبي طالب: «المال مادة الشهوات»، لكن سلطانه بعيد الشأو، وكما قال الرضي:

قـد يبلغ الـرجـل الجبـان بمـالـه مـا ليس يبلغـه الشجـاع المعـدَمُ
لا تخـدعنْ عنـه فـربَّ ضريبـةٍ ينبـو الحسام بهـا ويمضي الـدرهمُ

ولا تغيب عن الشاعر الحكمة التليدة:

إذا قـلَّ مالي قـلَّ صحبي وإن نما فلي من جميع الناس أهلٌ ومرحبُ

وخاتمة الأمر إن ذم المال لا يعني امتداح الفقر، فالفقر هو الموت الأكـبر و«الفقر في الوطن غربة»(٩٠).

وإنّما يعني رفض توثين المال وحسبانه غاية الغايات، فما هو إلا وسيلة، وأداة، تصليح إن وضعت في مـوضع خـدمـة النـاس، وتفسد إن وُضِعَت في موضع إذلال الناس، وخلق العداوات، وتأجيج الاحن والمحن.

الغربة الإجتماعية

غربة الناس أولاً

تحسب الغربة الإجتماعية وجهاً مباشـراً من وجوه الإغـتراب السياسي،

لأنها تتصل اتصالاً وثيقاً بالظروف السياسية، وتقلبات الأحداث، ومصائر الأشخاص الفعالين في جهاز الدولة أو في صفوف المجتمع. وتسهم العوامل الموضوعية، والنفسية، في إبراز الجوانب الإجتماعية للظاهرة السياسية، والوجوه السياسية للظاهرة الإجتماعية.

وفي جميع الحالات المتغيرة، تكون الوضعيات والعلاقات الإجتماعية، من نتائج الأمر السياسي، ولكنها - في الوقت ذاته - تصبح من أسبابه، وعوامله المحركة، سلباً أو إيجاباً.

وتتعرض سيكولوجية الجماعات إلى تغييرات مهمة، تبعاً لنوعِ المراحل السياسية التي تجتازها، وكذلك، تبعاً لمدى جثوم التاريخ القريب على زمنها لمدة أطول أو أقصر. لأن اعتياد الجماعة البشرية على العيش في ظل مرحلة معينة لفترة طويلة، (بالقوة أو بإرادتها) يؤدي إلى تعوُّدها على صفات جماعية، أو شبه جماعية، قد لا تكون من خصائصها الثابتة، وإن كانت - بالنتيجة - تقرب منها.

وتختلف الجماعات البشرية فيما بينها من الناحية السيكولوجية، وكذلك تختلف الجماعة البشرية الواحدة في ما يسمَّى بـ «السمات والخصائص» باختلاف مراحلها التاريخية، حيث لا توجد سمات وخصائص نهائية، وأبدية. وأن قانون (التفاعل) لا يسمح بوجود خصائص مطلقة. لكن بعض الخصائص النسبية تبدو وكأنها خصائص مطلقة من طول استمراريتها. ومن هنا يقال في بعض التحليلات السياسية والإنطباعات الثقافية عن بعض المجتمعات والشعوب إنها غافلة، أو كسولة، وعن بعضها الآخر إنها متمردة، وثَّابة.

في زمن البويهيين، استطاعت السلطة أن تمرر أساليبها الإنقسامية، التدميرية، بتشجيع الصراعات المذهبية لإمرار المخطط التصفوي. وذلك بإخضاع الصراع الطائفي لصالح الصراع القومي، لتحقيق السيادة التركية أو

الفارسية على الكيان العربي للمجتمع. إن المزيد من التناحر الداخلي الدامي بين طوائف ومجموعات عربية، ذات نسيج قومي واحد، كان يمهد لتكريس السيطرة الأجنبية، والشعوبية، وكذلك كان يهيء لإحداث انكسار نفسي يطيح بعوامل الوحدة النفسية القومية.

وبمجرد أن تتصدع هذه الوحدة، فإن قوة الحاكم الباطشة قادرة على تركيع نسبة واسعة من (العوام)، إضافة إلى ذلك، فإن خداع الناس من حين إلى آخر باللين وبالهدايا تمسخ الحضور الفعلي للإرادة القومية، لذلك فإن قوى الإحتلال الأجنبي، الفارسي والتركي وسواها، ظلت تعبث بالتاريخ العربي كثيراً.

ويمكن تقدير غربة الشريف الرضي، الذي رفع شعاره السياسي (الخلافة العربية، المجد العربي، بعث ذي قار، الخ) في مقارعته السلطة البويهية، فقد كانت أكثرية العوام مخمدة، تابعة، ذليلة، تشترى بالعطايا الضئيلة، وتساق بعصا البطش.

فأول خذلان - إذن - فاجأ الشريف الرضي، هو خذلان العوام، الذين ورد ذكرهم في شعره بأسم (الناس). إنَّهم - أصلاً - مستلبون، وهم في حالتهم تلك غير قادرين على إعانة بطل قومي متقحِّم في كفاحه العادل. وتبلغ الغرابة مبلغاً مدهشاً، في سيكولوجية الجماعات، إنها - أي الجماعات - تندفع - أحياناً - بهوجائية عمياء ضد أبنائها ومفكريها وأبطالها، استجابة لأوامر سياسية صادرة عن السلطة الأجنبية، فتنكل بهم، ثم تندم متأخراً.

يمكن أن نعثر على مثل هذا السلوك، في مراحل عديدة من أزمنة الإنحطاط في التاريخ العربي، بعد أن عفا الزمن على عصر الإزدهار العربي الإسلامي.

فأول غربة، واغتراب، بالمعنى الإجتماعي، عندما وجد الشريف

الرضي انعدام (الناصر) بالدلالة الإجتماعية، وكان ذلك يعني ـ في أقل تقدير ـ أن جماعة الناس التي لم تنصره، كانت تنصر العدو المباشر للعرب وهو السلطة البويهية.

من هنا، وربما أكثر من ذلك، كانت أعماقه تنزُّ بمرارة الخذلان، وقصيدته العربية (التي أشرنا إليها سابقاً) والتي قال فيها: «إذا عربيٌّ لم يكن مثل سيفه»، كانت على نقيض عادة الشعراء في اختيار مقدمة القصيدة (في النسيب، والتشبيب، وذكر الطلول، أو في مداخل أخرى)، بدأت بتقرير انعدام العهد في أكثرية الناس، منذ البيت الأول، وهو القائل:

لأيِّ حبيب يحسن الرأيُ والودُّ ... وأكثر هذا الناس ليس له عهدُ

ثم:

أكُلُّ قريبٍ لي بعيدٌ بودِّه ... وكلُّ صديقٍ بين أضلعه حقدُ

وتصعد عنده حدة التشخيص والإدانة، درجة عالية فيعلن:

الناس حولك غربانٌ على جيفٍ ... بلهٌ عن المجد إن طاروا وإن وقعوا
فما لنا فيهمُ إن أقبلوا طمعٌ ... ولا عليهم إذا ما أدبروا جزعُ

ويرى بنفسه أن الناس هم الداء، وأن الصراع بين العاقر والمعقور، صراع المفترس والفريسة، هو الذي يطغى على ما عداه، فيا لضيعة من يرنو إلى القضية: فقال:

يُطَيِّبُ النفس عن قطعي علائقها ... إنِّي أُفارق من فارقتُ معذورا
كن في الأنام بلا عينٍ ولا أُذنٍ ... أو لا فعش أبد الأيَّام مصدورا
غيب الرجال ظنونٌ قبل مبحثه ... فما طلابك أن تلقاه موفورا
فما نلائم إلا عاد منصدعاً ... ولا نثقِّفُ إلا عاد مأطورا
محل البلاد ولا جارٌ تغصُّ به ... يضوي الفتى ويكون العام ممطورا

والناس أُسْدٌ تحامي عن فرائسها		إمَّا عقرت وإمَّا كنتَ معقورا
كم وحدةٍ هي خيرٌ من مصاحبةٍ		ينسى الجميع ويغدو الفذُّ مذكورا
من كشف الناس لم يسلم له أحدٌ		الناس داءٌ فخلِّ الداء مستورا

ولقد كان ما ناله من الناس أسوأ جزاء، وهو الذي جُبِلَ على حب الناس، فهو في شجاعته، وكرمه، وكفاحه، وفي مسؤولياته التي تولاها، وصارع، وضحى فيها، لم يكن إلا منافحاً عن الناس.

وكان ذلك، من قبله، قضية ومسؤولية وواجباً، وليس مجرد عواطف إيجابية بسيطة، لكن كم هم أولئك الذين يقرون بشجاعة الشجاع، وتضحية المضحِّي، وجود السخيِّ، وهو يفعل ما يفعل من أجل الناس

لا شك إن العدد لضئيل، لأن غالبية الناس فيما إذا خيَّم عليها الجهل، وغشت ضمائرها غشاوات الكذب والتدليس، وأجبنت عن قول الحق، فإنها تسمِّي الشجاعة تهوُّراً، والكرم تبذيراً وسذاجة، والتضحية خبالاً.

ورغم أنها تعلم في قرارة النفس، ما هو الصحيح، إلا أن الجبن الطاغي، الذي لا تعترف به (ومتى اعترف إنسان بجبنه؟! يسوِّغ لها اتهام الغريب عنها، فتضيف إلى السهام والرماح التي تتناوشه رماحاً جديدة. فيصبح أكلة السهام، وأكلة المغتاب. . . فالذي شكا تبذل الشاعر صحابه، والناس الذين أبعد الهوى من أجلهم، فقال:

أنا أكلة المغتاب إن لم أجنها		شعواء يحضرها العقاب الغائبُ(٩١)
وكأنَّما فيها الرماح أراقمٌ		وكأنَّما فيها القسيُّ عقاربُ(٩٢)
قد عزَّ من ضنَّتْ يداه بوجهه		إنَّ الذليل من الرجال الطالبُ
إن كان فقر فالقريب مباعدٌ		أو كان مالٌ فالبعيد مقاربُ
وأرى الغنيَّ مطاعناً بثرائه		أعدائه والمال قرنٌ غالبُ(٩٣)

يشكـو تبـذُّلي الصحــابُ وعـاذرٌ أن ينبـذ المـاء المـرنَّق شـاربُ[٩٤]
من أجل هذاالناس أبعدت الهوى ورضيتُ أن أبقى وما لي صـاحبُ
وَأيُّ الليـالي إن غـدرن فـإنَّـه مـا سنَّ أحبابٌ لنا وحبـائبُ[٩٥]

غربة الأصدقاء ثانياً

ويرتفع مستوى الغربـة الإجتماعيـة في نفس الشريف الرضي، إلى حـالة اغـترابية أكـثر مأسـاوية، من تلك التي لفَّهـا به خـذلان أكـثر النـاس، وهي خذلان الأصدقاء، وهي الحالة الثانية من الإغتراب الخانق الذي يسـد أبواب التضامن الأخوي والروحي بوجهه.

إنَّ الصديق هو قـوة المسانـدة في السراء والضراء، في الفرح والـترح، وهو الحبيب الذي تشترك نبضات قلبه مع نبضـات قلب صديقـه، و«الغريب من لم يكن لـه حبيب» كـما قـال عـلي بن أبي طـالب، وأنـاس مثـل الشريف الرضي الذين يتسمون بالسخـاء والسماحـة وطهارة النفس، يجـدون أصدقـاء كثـراً، وهم يحمـون الصـداقـة ويسهـرون عليهـا، لكنهم سيئــو الحظ، لأن أصدقاءهم (يضيّعون) صداقتهم. وليس أكثر عذاباً للنفس الشريفة الحساسة من هجر الصديق، أو ابتعاده، أو نسيانه حق الصداقـة، وحق الصداقـة هو التلازم، والتذاكر بالمودة، والتشارك أمام تصاريف الزمان.

والإنسان مثل طيف عابر، وكذلك زمنه، فلا غنى لـه ـ والحالـة هذه ـ عن معاضدة الصديق، الذي يحفظه في غيبته، ونكبته، ووفاته.

وحقٌّ، مـا قـالـه عـلي بن أبي طـالب: «أعجـز النـــاس من عجـز عن اكتساب الاخوان، وأعجـز منه من ضيَّـع من ظفر بـه منهم». لكن الشريف الرضي وهو (الأشجع)، كسب الإخوان، فخسروه، وكم ضيَّـع أناس خـيرة النـاس، وأفضل الصـداقات لأسبـاب تافهـة، لا يعدو بعضهـا الغـرور، أو

لسماع القال والقيل، أو قبول مصاحبة أهل السوء، أو سوى ذلك، لكن الذين هجروا الشريف الرضي، كانوا يتهيبون من علو همته، وعظمة مسعاه، ولا يحلق مع الباز إلا الباز، فأشفقوا على أنفسهم من طول الرحلة، وأشفق عليهم الرضي أيضاً، لكنه ظل يشكو غدر الخلان والأصدقاء، وهذا أسوأ ما يناله امرؤٌ في حياته.

ويحار الإنسان في تفسير ظاهرة تعرض الشرفاء لغدر وخيانة الأصدقاء، هل هو سوء الحظ أم البلاء؟ وهو - كما ذكرنا - بدرجات ، وبأشكال؟ وهل الشريف يغري الصديق بخيانته، بسبب شرف طبعه، ونبل نفسيته، وترفعه عن العقاب؟ أم أن الحسد يحرك ذيله في نفس الصديق، الذي يُبرُّ بنفسه علوَّ مكانة صديقه الشريف، فيغار، ويحقد، وينتقم؟

قد تكون الصورة هنا أكثر وضوحاً. فالصديق يرى صفات صاحبه النبيلة، مثلما في مرآة، يرى تفوقه، وجدارته، ونفاسة معدنه، وهو يرى نفسه - أيضاً -، يرى عجزه عن اللحاق بتلك السمات السامية، ولأن نوازع الشر موجودة في الصدر، فإنَّه بدلاً من أن يعتبر تلك السمات قدوة يهتدي بها، فإنَّ نوازع الضحالة تخبط خبطتها، فتخلق الحسد والغيرة، والكراهية المتدرجة، ثم الإنتقام اللئيم.

وأبدياً، ظلتْ خيانات الأصدقاء مروعة، ومهينة وإنسان مثل الشريف الرضي يعرف الناس، ويعرف اختياراته جيداً، لأنه القائل:

تشفُّ خلال المرء لي قبل نطقه وقبل سؤالي عنه في القوم ما آسمُهُ

لا يمكن أن لا يعرف وجوه أصدقائه، وأكفهم، لكن هل يكفي ذلك لمعرفة ما وراء الدخائل؟ وأيّاً ما كانت معرفة الشريف الرضي بالأصدقاء والخلان، فإن غدرهم يجرحه جرحاً لا مثيل له، دائم النزف، لأن معرفته المخذولة تطرق أوتار نفسه الحساسة المرهفة، فيكون الأنين مثل صوت ريح

البادية: حزيناً، حزيناً، حزيناً، كروح مسمرة في النكبة!

هل كانت معادلة الشريف الرضي، معادلة الناس الذين هم مثله في صفاء الإحساس والذكاء النادر ؟

ولعلّ سمات المحب العظيم، غير هذه السمات: الحب الخارق للأم، والحب العنيف للأصدقاء، وحب البشر، والحياة، والسمو بالنفس نحو المثل والمبادىء ونحو أخلاقيات الشرف؟ وهل هي غير الرهافة، والسخاء، والشجاعة، والموهبة، فلماذا، إذا تجمعت لدى امرىءٍ تعرض لغدر الصديق، غدر الجبان، فينام الجبان على وسادة جبنه، ويظل هو شاكياً للزمان اغترابه؟

ويربط الشريف الرضي، كل شيء بالأصول، فإن أوضح ذلك، في شعره بالسببية، فقد فعل، وإن أوضح ذلك بالتجاور فقد أومأ، وقد قال:

وأوَّل لؤم المرء لؤم أصوله   وأوَّلُ غدر المرء غدر خليلِ

فالله، الله، لمن توحَّدت في نفسه أيكة الأصل الشريف، ومحبَّة الخلَّان!

ولله، ما يلقى من غدر من لَؤُمت أصوله، ومن يضع السم في كأس صاحبه وصديقه وخليله!

فطارت شكوى الرضي إلى الجوزاء، وإلى جميع محطات ذاكرة الزمن، فتشاكل الشجو والشجن والشكر في ناموس البلاء، والله الحي الشاهد:

أشكو النوائب ثم أشكر فعلها   لعظيم ما ألقى من الخلّانِ
وإذا أمنتَ من الزمان فلا تكن   إلّا على حذرٍ من الإخوان

وكذلك قال عن معاناته من نفاق الأصحاب:

فكم صاحب تدمى عليَّ بنانه ويظهر أن العزَّ لثمُ بناني
يضمُّ حشا البغضاء عند تغيُّبي ويجلو جبين الودِّ حين يراني
مسحت بحلمي ضغنه عن جَنانه فلمَّا أبى مسَّحته بسناني
سبقتُ برميي قلبه فأصبتُه ولو لم أصبْه عاجلاً لرماني

وقال:

لحا الله دهراً خانني فيه أهله وأحشمني حتى احتشمت الأعاديا
فلستُ أرىٰ إلا عدوّاً مكاشفاً ولستُ أرىٰ إلّا صديقاً مداجيا

وفي وحشة الوحدة، وهو يجتاح الأرض بهمته ومجده وعلوِّ شأنه، وآماله الكبيرة، يصدحه الخذلان فيرى نفسه وحيداً ليس له صديق، إذن ليس له منزل أو سكن! لكن: متى كانت لكبار النفوس مساكن؟

وظلّ الشريف الرضي، شاعر القلب والحكمة، يحل ثنائية التفجع بين حاجته إلى الصديق، وبين حرمانه من وفاء الأصدقاء (إلّا من قلة نابهين أجلّاء) في شكوى الدهر والزمان، وكان يتساهل في فجائع وأزمات كثيرة، لكن انعدام وفاء الأصدقاء كان ينقله فوراً إلى مخاطبة الدهر الخائن، لأن الصداقة حلت في قلبه وعقله محلاً لا أعلى منه ولا أرقى، فإن قلّ الصديق كان الدهر مسؤولاً عن ذلك:

توقَّعي أن يقال قد ظعنا ما أنت لي منزلاً ولا سكنا
يا دارُ قلَّ الصديق فيك فما أُحسُّ ودّاً ولا أرى سكنا
ما ليَ مثل المذود عن أربي ولي عرامٌ يجرُّني الرسنا
ألين عن ذلَّةٍ ومثليَ من ولي المقادير جانباً خشنا
معطّلاً بعد طول ملبثه منازلاً قد عَمَرْتُها زمنا
تلعب بين النائبات واغلةً كما تهزُّ الزعازع الغصنا

أيـقـظن مـني مـهـنَّـداً ذكـراً		إلى المـعـالي وسـائـقـاً أرنـا
كـيف يهـاب الحـمام منصلتٌ		مـذ خاف غـدر الزمان ما أمنا
لم يـلبث الـشـوب من تـوقُّعـه		لـلأمـر إلَّا وظـنَّـه كـفـنـا
أعـطشـه الـدهـر من مـطالبـه		فـراح يستمـطر القنـا اللدنـا
لي مهجـةٌ لا أرى لها عـوضـاً		غـير بـلوغ الـعـلىٰ ولا ثـمـنـا
وكيف تـرجـو البقـاء نفس فتىً		ودأبهـا أن تضعـضـع البـدنـا
أكـرُّ طـرفي فـلا أرى أحـداً		إلّا مـغيـظاً عـليَّ مضـطغنـا
يُـنْبض لي مـن لـسـانـه أبـداً		نـصـال ذمٍّ تمـزَّق الجـنـنـا

إن الصراع يشتدُّ، وتضاف إلى أسبابه أسباب جديدة.

وسيرى الشريف الرضي نفسه شارداً في البلاد دائماً، منكوراً، محروماً، جريحاً لأن حبل الوفاء، أنَّى ذهب وتوجه، يتصرم كاللعنة:

أأُنكـر والمجـد عنـوانيـه		ومخـبرتي عنـد أقـرانيـه
ويُعْـرف غيري بـلا ميسمٍ		مبـينٍ ولا غـرَّةٍ ضـاحيـه
ألا قـاتـل الله هـذا الأنـام		وقـاتـل ظـني وأمـاليـه
ودهـراً يمـوِّل ذلَّاتـه		ولا يـذخـر العُـدْم إلّا ليـه
إذا مـا تمـاثلتُ من غصبـةٍ		أعـاد المـرار فسقَّـانِيَـه[٩٦]
فيا ليت حظِّي من ذا الزما		نِ ردَّ نـوائبـه الجـاريـه
زمـانٌ عـدا العيُّ أبنـاءه		فـأفصح من نـاطقٍ راغيـه
سؤالاً فهـل يخْبرنْ سـالفٌ		من العيش قـطَّع أقـرانيـه
ألا أين ذاك الشباب الرطيـ		ـب أم أين لي بيض أيَّاميه
مشى الدهر بيني وبين النعيـ		ـم ظلماً وغيَّر من حـاليـه
نـظرتُ وويـل أمِّهـا نـظرةً		ببيضاء في عـارضي باديـه
يقـولـون داعيـةٌ للشبـاب		فقلتُ ولـكنَّهـا نـاعيـه
ألا قطع الناس حبل الوفاء		وأولـع بالغدر خـلَّانيـه

وصرتُ اعدَّد في ذا الزمان　　صـــديقيَ أوَّل أعـــدائيـــه
أضرُّ الأنـام لي الأقـربـــون　　وأعدى الورى ليَ جـيرانيه
إلى كم أُخفِّض من عزمتي　　وكم يأكل العضبُ أغمادِيه[٩٧]
فـلله عــزمــيَ لــو أنــه　　عـلى قدْرِ عـزميَ سلطانيـه
ستسمع بي شارداً في البلاد　　لأمــر أُغـــيِّر انســانيـــه
وقد أغتدي غـرض النائبا　　ت لا يتقي الروع إلاّ بِيَه[٩٨]
نـديما جـذيمة لي في البـلاد　　نديمان والظلمة الداجيـة[٩٩]

وبما يزيد في تأثير غدر الأصـدقاء والخـلان على نفس الشريف الـرضي مرارة، أنه شديد اللهفة على الصديق، فروح الصداقة تغـزو دمه وأعصـابه، وذهنه، وقلبه. وتبدو آثار قسوة الخيانة، أو الجفاء شديدة عليـه إذا ما علمنـا أنه يذكر عن نفسه أنه تحفة للصديق قائلاً:

عـلى أنني تحفـة للصـــديق　　يـروح بنجواي أو يغتـدي
وإنِّي ليـــأنس بي الـزائـرو　　ن أنس النـواظـر بـالأثمـدِ
تغمض لي أعين الحاسـديـ　　ـن كالشمس في ناظر الأرمدِ
فـلا دخل البعـد مـا بيننـا　　ولا فـكَّ منـا يـداً عن يـدِ
وطـــول أيـــامنـــا بـــالمقـــا　　م في ظل عيشٍ رقيق نـدي

لكن قدره أنه وهو الصديق والصادق ليس له صديق، فيقول:

كفىٰ حـزنـاً أني صـديقٌ وصـادقٌ　　ومــا لي من بـين الأنـــام صـديقُ
فـكيـف أريـغ الأبعـــديـن لخلَّةٍ　　وهـــذا قـــريـبٌ غـــادرٌ وشقيـقُ

وظلت حسرته على الصديق تنتهي دوماً بمقالة حكيمة:

مـن لي بـغـــرَّة صـــاحـــب　　لا يستـطيل عليـه عـابُ[١٠٠]
مـــا حـــار الأيـــام إلا　　كـــان لي ولـــه الـــغـــلابُ

هيهـــات أطلب مـا يــطو ... لُ بــه بــعــادُ واقــترابُ
قـلَّ الصحاب فـإنْ ظفرْ ... تُ بنعمـة كـثر الصحـابُ
مـن لي بــه ســمـحــاً إذا ... صفرت من القوم الوطابُ[101]
من لي بــه يــا دهــرُ والْـ ... أيَّــام كــالحــةٌ غـضــابُ

غربة الأقرباء ثالثاً

وتحـل مرتبـة ثالثـة للاغـتراب الاجتـماعي، فيتـطوق الشريف الـرضي تطويقاً مريراً، لا فرار منه إلا بالهرب البـاكي، فمن غدر الصحـاب إلى غدر الأقرباء، فكأن خساسـة الزمن، وخـذلان الناس، وغـدر الأصدقـاء، وسوء الحظ، ومرارة الدهـر، لم تكتف بمطاردتها له، وهـو الوحيـد المتغرب، فكـأن صوت المؤامرة السرية، التي تضافر فيها الجميع، يصرخ: امنعوا الضفـة عن الغريب! وكانت له ضفة، وأية ضفة؟ الأهل والأقربـون؟ فإذا هم تـواصلوا مع البلوى كبلوى فـادخرهم الـزمان لتحميله فـوق الأذى أذىً جديـداً، فـما هـو فاعل إذن؟

وإنه ليتأسَّى لنفسه، وما نفع التأسي، وقد كان غدر الأقرباء مدعاة لأن لا يعجب من غدر الأصدقاء؟

وهذا ما قاله صريحاً:

تجــاذبــني يــد الأيــام نــفسي ... ويـوشك أن يكـون لهـا الغـلابُ
وتغــدر بي الأقــارب والأداني ... فـلا عجبٌ إذا غـدر الصحــابُ

وفي قصيدته التي كان مطلعها:

خصيمٌ من الأيــام لي وشـفيــعُ ... كـذا الدهـر يعصي مـرَّةً ويـطيـعُ

والتي يتحدث فيها عن الدهر بأبدع العبارات الشعرية التي تدور حول

فكرته المصطفاة في بيت الشعر:

عجبت لـه يسري بنا وهـو واقفٌ ... ويـأكـل من أعـمارنـا ويجـوعُ

في تلك القصيدة لم ينس أن يشير إلى خدعة وداد بعض الأقربين، وكأنه ما كان يقصد (البعض) بل وأكثر وأكبر من البعض فقال:

وبعض مقال القائلين مكـذَّبٌ ... وبعض وداد الأقـربين خَـدوعُ

ويتكرر الحديث في شعر الشريف الرضي كثيراً عن غدر الأقارب، وعن خداع الود الذي يظهره إليه بعضهم، ولديه في ثقافته القرآنية، وفي معلوماته أشياء كثيرة، أولها عندما قتل (قابيل) أخاه (هابيل)، وحتى النبي الكريم خانه عمه «أبو لهب»، والشريف الرضي - نفسه - قال:

ما كلُّ نسل الفتى تزكو مغارسه ... قد يفجع العود بالأوراق والثمر

لكن رجفة التجربة الحزينة أكبر من المفاهيم والأفكار والمعلومات والفجيعة الآتية منذ القدم، تستضيف إلى ركبها، كل يوم، مآسي تقطر دماً، أو إحساساً أهول من الدم.

إذ تأبى حرب الخذلان ضد الشريف الرضي إلا أن تبلغ ذروة التصعيد، فمثلما هو يتجوهر في حبه، وعشقه، وصداقاته، ووداده، فإن كل معادة الدهر تظهر في أكثر تعبيراتها قساوة وحدة. فقد كتب عليه أن لا يلقي بعض العنت، أو بعض الشقاء، أو بعض الإساءة، بل كل العنت، وكل الشقاء، وكل الإساءة. لقد هجمت عليه رؤوس الإساءة، لا ذيولها. ومن السم تجرع أصل مادته، لا مزيجه! فكانت المرارات تتراكم، وتتراكم، وتصنع مدرجها الكئيب الذي يوصل إلى أشقى الشقاء.

وكان الذي بينه وبين أخيه (المرتضى) من جفاء، أوشك أن يدوي به، لولا أن النفس تفتحت بالجراع، فما ضرها أن تستقبل أخطر جرح!

و«لا تحدثنا كتب التراجم عن أسباب الجفوة التي وقعت بين ذينك الأخوين ولكننا نعرف أنهما لم يكونا مؤتلفين كل الائتلاف، لأن مذاهبهما في الحياة كانت مختلفة بعض الاختلاف، ويمكن الحكم بأن الرضي كان جمهوره من أهل الأدب، وأن المرتضى كان جمهوره من أهل العلم، وهنا تظهر أسباب المنافسة بين الأخوين، فالرضي الشاعر كان عالماً جليلاً، والمرتضى العالم كان شاعراً مجيداً، ولا ندري متى يأتي الزمن الذي يسمح بأن نحدد خصائص هذين الأخوين، ونبين ما يشتركان فيه، وما يتفرد به كل منهما تفرداً لا يتطرق إليه الخلاف، ولكن لا مندوحة من تقرير الواقع المؤلم، وهو أن ذينك الأخوين عرفا كدر الأخوة بعد الصفاء، وإن جهلت حقائق الأسباب، ولكن أي كدر؟ تصوروا حال الشريف الرضي الذي مدح أخاه بكثير من القصائد الجياد، وامتزاج بحياته البيتية امتزاج الماء بالصهباء، تصوروا حاله وهو يسمع أن أخاه يمسه بقوارص الاغتياب».

و«قد شرب الرضي كؤوس العلقم من يد الزمان، رأى من البلايا ما أنطقه بالشعر وهو في العشر من سنيه، ورماه بالشيب وهو في سن العشرين، ولكن هل تجور الدنيا إلى هذا فيرى أخاه الشقيق وهو يمضغ عرضه بلا تورع ولا استحياء؟ هل تفسد الدنيا هذا الفساد فنرى المرتضى والرضي يتباغضان ويتحاقدان بعد أن جمعتهما الأيام تحت جناحي أم رؤوم تروضهما على المودة والعطف، وهي ترى الدنيا في وجهيهما حين زجَّ زوجها في غياهب الاعتقال؟»[١٠٢].

وها هي قصيدته الضادية التي يرد فيها على قدح شقيقه الكبير المرتضى، والتي كان د. زكي مبارك يرى فيها أعظم ما نظم في قافية الضاد، وقد تأثر بها الضادية التي اختارها أبو تمام في الحماسة، فجاءت ضاديته أبلغ وأروع[١٠٣]:

رضيتُ من الأحباب دون الذي يُرضي
وداينت من تقضيْ الديون ولا يقضي

وقد أنهرت فيَّ الليالي جراحها
مراراً وأنضاني من الهم ما ينضي(١٠٤)

طوى الدهر أسباب الهوى عن جوانحي
وحلَّ الصبا عقد الرحائل عن نقضي(١٠٥)

ولم يبق لي في الأعين النجل طربةٌ
ولا أربٌ عند الشباب الذي يمضي

ضحا اليوم عن ظلٍّ الشبيبة مفرقي
وأبدل مسودَّ العذار بمبْيضِّي(١٠٦)

أتاني وممطولٌ من النأي بيننا
قوارص تنبو بالجفون عن الغمضِ(١٠٧)

ومولىً ورىٰ قلبي بلذعةِ ميسمٍ
من الكلم العوراء مضَّاً على مضٍّ(١٠٨)

فعذراً لأعدائي إذا كان أقربي
يشذِّب من عودي ويعرق من نحضي(١٠٩)

إذا ما رمى عِرضي القريبُ بسهمه
عذرتُ بعيد القومِ أمَّا رمى عرضي

ألم يأنه أني تفرَّدتُ بعده
روابيَ للعلياء جاش لها نهضي

وأني جعلت الأنف من كل حاسدٍ
قبالي وخدَّيْ كل مضطغنٍ أرضي(١١٠)

وكـم مـن مـقـامٍ دون مجـدك قـمـتـه

عـلى زلـق بـين الـنـوائـب أو دحضِ

وقـارعـت مـن أعـيـاك قـبـل قـراعـه

فـداجـني بـعـد الـتـشـار والـبـغضِ

لـقـد أمسـت الأرحـام منـا عـلى شـفـا

فـأخـلقْ بمـشـفٍ لا يـعـلّل أن يـقضي

رأيـت مخـيـلات الـعـقـوق مـلـيـحـةً

فـلا تجعلن بـرق الأذى صـادق الـومضِ[111]

ولا تـشـمـتـنْ مـن ودٍّ لـو أنـنـا مـعـاً

شجيـجـان تلطينـا الجنـادُل بـالأرض[112]

إذا كـنـتُ اغضي والـقـواذع جمَّـةٌ

فـمـثـلك أولى أن يـرمَّ وأن يـغضي[113]

. . . . إلى آخر القصيدة.

ثم حدث الرضا بين المرتضى والرضي فـ «لم تطل الجفوة فكتب المرتضى إلى أخيه الرضي قصيدة جيدة » نتخيَّر منها الأبيات التالية[114]:

تـكشَّـف ظـلُّ الـعتـب عـن غـرَّة الـعـهـدِ

وأعــدى اقـتراب الـوصـل منـا عـلى البعـدِ

تجـنَّبـني مـن لـستُ عـن بـعض هـجـره

صـفـوحـاً ولا في قـسـوةٍ عـنـه بـالجـلدِ

نـضـتـه يـد الاعـتـاب عـمَّا سـخـطتـهُ

كـما ينتضي الـعـضـبُ الجـرار من الـغـمـدِ

وكـنـت عـلى مـا جـرَّه الهـجـر ممسـكـاً

بـحـبـل وفـاء غـير مـنـفـصـم الـعـقـدِ

أمين نواحي السرِّ لم تسرِ غدره
بـبالي ولم أحفل بداهية الصدِّ

تلين على مسِّ الإخاء مضاربي
وإن كنتُ في الأقوام مستخشن الجدِّ

ولما استمرَّ البين في عُدَوائه
تغوَّل عفوي أو ترقَّى إلى جهدي

أصاحبَ حسن الحظ والشكُّ مقبلٌ
بوجهي إلى حيث استمرَّت عرى الودِّ

إذا اتَّسعت في خطة الصدِّ فكرتي
تجلَّلني همّ يضيق به جلدي

وإن ناكرتني خلَّةٌ من خلاله
تعرَّض قلبي يفتديها من الحقدِ

إذا تركت يمنىٰ يديك تعلُّقي
فيا ليت شعري من تمسَّك من بعدي

إياباً فلم تشرف على غاية النوى
ولم تنأ كلَّ النأي عن سَنَن القصدِ

ولو لم يلاقِ الزند قدحاً بمثله
لما انبعثت شهب الشرار من الزندِ

هلُمَّ نعدْ صفو الوداد كما بدا
إعادة من لم يلف عن ذاك من بُدِّ

ونغتنم الأيام فهي طوائش
تواتي بلا قصدٍ وتأبىٰ بلا عمدِ

ومثلك أهدىٰ أن يقاد إلى الهدىٰ
وأرشد أن ينحاز عن جهة الرشدِ

غربة المتفرد

لا يمكن قصر الاغتراب على شروط الموضوعية، من حيث كونه تغريباً سياسياً واجتماعياً واقتصادياً، إذ ان العوامل الذاتية للاغتراب تشكل اساساً قوياً لفعالية الثروة والمؤثرات الموضوعية. وبالنسبة إلى الشريف الرضي لعبت طبيعته الشخصية دوراً كبيراً في اغترابه المأساوي. واستناداً إلى أشعار الشاعر، وإلى المعروف عن حياته، فأن طبيعته تتسم بمزيتين واضحتين تماماً: الأولى قوة طبعه، وحدّيته التي لا يستطيع حيالها الاقدام على أية مراوغة شخصية. ولعل وضوحه القاسي كان سبباً كبيراً لكثير من المتاعب التي مرَّ بها، وكثيراً تحدث عن السيف، بل هو يرى أن السيف لا معنى له، (وليس سيفاً) إذا ظل مغمداً، فهو سيف في وظيفة الاستعمال، وليس في اطار الغمد والحفظ فقال:

«أنا السيفُ إلا أنني في معاشر ... أرى كل سيف عندهم لا يُجرَّبُ»

ومثلما بدأ جلياً في العديد من الاستشهادات الشعرية المذكورة، وسواها مما لم نذكره - وهو اكثر! - كان الشاعر متجهاً صوب أهدافه التي اجملتها كلمة (المعالي) تعبيراً عن قضية سياسية وايديولوجية، وطموح متحصن بدلالة دينية وتأريخية.

وأكسبته طبيعته الشخصية العنيدة، واقعية مباشرة، وتعاملاً حسياً مع الاحداث بالمستوى الذي حتَّمه كفاحه من أجل تحقيق بعض أهدافه.

وإن (العلى) الذي كان يتوق إلى الوصول إليه باستمرار، لم يكن مقطوعاً عن تلك الطبيعة نفسها، لأنها بالذات، طبيعة تحمل في داخلها شعوراً بالعلو لم يفارقه لحظة. وانسان، هو الشريف الرضي، ذو نفس عالية، لا يمكن الا أن يكون صادقاً في حياته، حقيقياً، واضحاً، مباشراً، مفصحاً عن اهدافه، واغراضه، وعواطفه، بشاعرية صافية.

ومن موقع العلو النفسي، يأنف الشاعر وأي انسان مشابه له، من التدني، والتلوث، والارتباط بالشبهات ومن باب أولى، فإنه يترفع عن الكذب، والالتواء، والاحتيال، والتخابث، وسنرى - فيما بعد - كيف أن هذه الصفة من صفات الشريف الرضي متعلقة بخوض غمار حرب صعبة مع الناس والاقرباء والاصدقاء بسبب صدقه في عشقه، وتعففه عن النفاق، باسم دواعي نقابته وإمارته بالحج.

وإذا كانت صفة القوة الطاغية في طبيعة الشريف الرضي قد برزت في مضامين كثيرة من شعره، والشعر ترجمان الأفكار والأحوال، فإن الصفة الثانية برزت في حياته الواقعية، وفي شعره أيضاً، هي صفة السماحة، التي يمكن حسبانها نوعاً من الديموقراطية الفطرية، والمناقبية الانسانية السمحاء. وهي - أيضاً -الوجه الآخر لعظمة الروح. فالقوة الحقيقية للشخصية هي التي توفر اوسع الامكانات، والاستعدادات لخوض الحوار الديمقراطي، والتعايش مع المذاهب والافكار بثقة.

إن الضعفاء حينذاك، وفي أي وقت آخر، في ميدان السياسة والفكر هم الذين يخشون الحوار والتعايش مع الآخرين من مختلف المستويات المذهبية والايديولوجية، ذلك لان الترعزع الذي يلم بنفس الضعيف فكرياً واخلاقياً يعجزه عن المعايشة، والمجابهة المشروعة، ومقارعة الحجة بالحجة.

وعلى امتداد حقب التأريخ كان المتعصبون، المتطرفون اضعف الناس، لذلك فقد استخدموا النار والحديد للأجهاز على اجتهادات الفكر والسياسة ولم تكن ظاهرة قوة بعض رؤوس التعصب، التي لا يمكن انكار وجودها في مراحل تأريخية معينة وفي بلدان مختلفة، دالة على قوة حقيقية، بالمعنى الانساني، بل هي نوع من شذوذ القوة، أو القوة الشاذة.

وحينما تحاول ماكينة السياسة طوي السجلات والأوراق، وكم الافواه،

والتكتم على الأخبار والإختباء في ليل السرية، فإن قوة التاريخ تفتح كل ما طوته السياسة، وتسلط الضوء على مخفياتها وطلاسمها.

ولان السياسة (بنت) التاريخ، فإنها تسلم الاحكام النهائية إلى التاريخ الذي يقرر مدى الضعف والقوة، والكذب والصدق في حيوات البشر الفعالين، من سياسيين ومفكرين، وشعراء ومقاتلين.. الخ.

وقد انتصر التأريخ للقيم السمحاء، وادار ظهره للتعصب، وبذلك اصبح تاريخاً.

ويبدو أن الشريف الرضي ورث سماحة الاخلاق وديمقراطية الرأي ورفضه للتحجر والتعصب والانعزالية وتصنيف البشر باسم المعتقدات وسواها، من ابيه السيد ابي احمد الموسوي، الذي كان الرجل الهمام، والرأس المقدام، في حل مشكلات الصراع الطائفي الذي كان يؤججه الاجانب الطامعون وعملاؤهم المنتفعون.

ان قدرة والد الشريف الرضي على تحقيق المصالحات بين الفرقاء المتناحرين، تناحر الفتنة المذهبية في سياق عشوائية التعصب وغوغائية المتعصبين، هي قدرة عالية بالتأكيد، وهي تعني ان شخصية ابي احمد الموسوي كانت مقبولة لدى جميع الفرقاء المتناحرين، فكانت لآرائه مؤثرة.

وبحكم مكانته وعلو منزلته بين المسلمين، وقدرته على ادارة دفة الاحداث في الوسط الاجتماعي، فإنه اصبح - في نظر السلطان البويهي - مصدر خطر كبير على السلطة، وقوة منافسة لها، يحسب لها اكبر حساب.

فكان اعتقاله تعبير عن غلو السلطة البويهية في الخشية من مكانته الدينية الاجتماعية الكبرى.

وقد تشرب الشريف الرضي من اخلاق ابيه كل السماحة النجيبة التي

جعلته ينظر إلى البشر بمنظار المحبة، لا بمنظار التعصب الضيق، الذي يصطنع الفوارق بين البشر، بعنصرية مقيتة، ذات منحى مذهبي، ادعائي، شكلي بالنتيجة.

ولقد عاب على المسلمين الفئوية، والتناحر، والتمزق والضعف أمام الغزاة الاجانب الذين ارادوا تصفية حساباتهم التأريخية مع العرب، أمّة الاسلام وحرزه الحريز.

وكان أن توجه بالنقد المرير إلى قومه المتنابذين، المتنازعين، الذين فرقتهم الطوائف بتشجيع من السلطة الاجنبية وخدمها، ومنفذي مخططاتها التصفوية، وكان نقده مدخلاً بدعوة إلى التمرد والثورة، فقال في قصيدة له:

إلى كم الرحم البلهاء شاكية ... لها من النعي إعوالٌ وإرنانُ
حيرى يُضلّونها ما بيننا ولها ... ونا على عدواء الداءِ نشوانُ
النَّجرُ متفقٌ والرأي مختلف ... فالدار واحدة والدين اديانُ
وثمَّ اوعية الاحسان مكفأةٌ ... فوارغٌ ووعاء الشر ملآن
إنا نُجرُّهم اعراضنا طمعاً ... في أن يعودوا إلى البقيا كما كانوا
انّ يتاهُ بكم في كل مظلمةٍ ... وللرشاد امارات وعنوان
ميلوا إلى السلم أن السلم واسعةٌ ... واستوضحوا الحق أن الحق عريان

ثم قال:

يا قوم إن طويل الحلم مفسدةٌ ... وربما ضر ابقاء واحسانُ
مالي أرى حوضكم تعفو نضائبه ... وذودُكم ليلة الاوراد ظمآنُ
مُدَّفعين عن الأحواض من ضَرَع ... ينضوا بهامكم ظلمٌ وعدوانُ
لا يُرهبُ المرء منكم عند حفظته ... ولا يراقبُ يوماً وهو غضبان
إن الأولى لا يعز الجار بينهُم ... ولا تهان عواليهم لذُلّان
كم اصطبار على ضيم ومنقصةٍ ... وكم على الذل اقرارٌ واذعانُ

وفيكم الحامل الهمهام مسرحهُ داجٍ ومن حَلَقِ الماذيِّ ابدانُ
والخيل مخطفةُ الاوساط ضافرةٌ كأنهن على الاطواد ذؤبانُ
الله الله أن يبتزَّ امركم راعٍ رعيتهُ المعزيّ والضانُ
ثوروا لها ولتُهن فيها نفوسكم إن المناقبَ للارواح اثمانُ

ولعب اساتذة الشريف الرضي دوراً كبيراً في تعزيز سماحة روحه، واصالة نظرته الاصلاحية الانسانية، فهو لم يتتلمذ على اساتذة من مدرسة مذهبية واحدة، بل كانوا من مذاهب وطرائف فكرية مختلفة، فخلق ذلك انسجاماً وافراً بين طبيعته الحرة وبين حرية الفكر التي كانت رائده ومناخه الذي ترعرع فيه.

وكان اشهر من اخذ عنهم الشريف الرضي هم(١١٥):

١ - ابو الفتح عثمان بن جني (ت٣٩٢هـ): وقد ذكره الرضي في كتابه (المجازات النبوية) وهو استاذه الأكبر في علم النحو، صَاحَبَهُ كثيراً، واعجب الرضي بآرائه، واعجب هو بشعر الرضي، فشرح بعض قصائده، ومدحه الرضي بقصيدة يشكره فيها ويصفه الانباري بأنه كان من حذاق اهل الأدب واعلمهم بعلم النحو والتصريف، فصنف في النحو والتصريف كتباً ابدع فيها كالخصائص والمنصف، وسر الصناعة وصنف كتاب في شرح القوافي وفي العروض، وفي المذكر والمؤنث .

٢ - ابو الحسن علي بن عيسى الربعي (ت٤٢٠هـ): وهو استاذع في النحو قبل ابن جني، قرأ عليه مختصر الجرمي وقطعة من كتاب الايضاح لابي علي، والعروض للزجاج والقوافي للاخفش. . وذكر عنه القفطي انه صاحب (ابا علي) ودرس عليه وكان يقول له «لو سرت من الشرق إلى الغرب لم تجد انحى منك».

٣ - قاضي القضاة عبد الجبار بن احمد الشافعي المعتزلي

(ت٤١٥هـ). ذكره الشريف في المجازات أيضاً. وقرأ عليه (تقريب الأصول) وكتاب (العمدة) في اصول الفقه.

٤ - أبو بكر محمد بن موسى الخوارزمي (ت٤٠٣هـ).

ذكـره الشريف في المجازات ودرس عليـه ابوابـاً في الفقه، ويُعـدُّ شيخ الحنفية وفقيههم.

٥ - أبو عبدالله بن عمران المرزباني (ت٣٨٤هـ):

وكان أديباً فذاً وراوية بارعاً. قرأ عليه الشريف الفقه والحديث. وكان يقال عنه في زمنه إنه احسن تصنيفاً من الجاحظ. وهو معتزلي صنف كتـاباً في اخبار المعتزلة كبيراً.

٦ - ابو اسحاق ابراهيم بن احمد بن محمد الطبري (ت٣٩٣هـ):

وكـان فقيهاً مـالكياً، ويعـد شيخ القـراءات. تتلمذ عليـه الشريف في عنفوان شبابه وقرأ عليه القرآن.

٧ - الشيخ المفيد (ت٤١٣هـ):

ابـو عبدالله محمـد بن محمد بن النعـمان قـرأ عليـه الشريف مـع اخيـه المـرتضى وقد انتهت إليـه رئاسـة الامامـية في وقتـه، وكـان مقـدمـاً في العلم وصناعة الكلام والفقه، وله ما يقرب من مئتي مصنف.

٨ - ابــو القــاسم عيسى بن عــلي بـن عيسى بـن داود بن الجــراح (ت٣٩١هـ):

وهو شيخه في الحديث، ذكره في المجـازات، وترجم لـه ابن الجوزي، ووصفه بأنه كان عـارفاً بـالمنطق والحـديث، روى عنه الازهري والصيمري، وكان بالاضافة إلى ذلك شاعراً.

٩ - ابو حفص عمر بن ابراهيم الكناني (ت٣٩٠هـ):

يروى عنه الحديث، وقد ذكره في المجازات، اثناء حديثه عن (الخمر أم الخبائث)، وهو الكناني (بنونين) كما ورد في المجازات لا (الكتاني) بالتاء كما ورد في المنتظم والشذرات.

١٠ - ابو سعيد السيرافي (ت٣٦٨هـ):

الحسن بن عبدالله بن المرزبان، كان عالماً في الفقه واللغة والنحو والفرائض والعروض. تتلمذ عليه الشريف في التاسعة من عمر.

١١ - ابو علي الحسن بن احمد (ت ٣٧٧هـ):

وهو أحد أئمة العربية، اجازه في كتابه (الايضاح) وكان من تلامذته المشهورين عثمان بن جني، وعلي بن عيسى الشيرازي، وقد تقدم عند عضد الدولة الذي كان يقول: أنا غلام ابي علي النحوي في النحو، كما اقام بحلب عند سيف الدولة مدة، وجرت بينه وبين ابي الطيب المتنبي مجالس.

١٢ - ابو محمد عبدالله بن محمد الاسدي الاكفاني (ت٤٠٥هـ):

يذكره صاحب الغدير، وكان عالماً، ولي قضاء مدينة المنصور وباب الطاق، ثم جمع له قضاء بغداد.

١٣ - ابو محمد هارون بن موسى التلعكبري (ت٣٨٥هـ):

ذكره الاميني في الغدير، ولن تسعفني مصادري في العثور عليه.

١٤ - سهل بن احمد بن عبدالله بن سهل الديباجي (ت٣٨٥هـ):

روى عنه الشريف في المجازات، واغفله الاميني في موسوعته، وذكره محمد عبد الغني حسن في مقدمة تلخيص البيان، وأشار إلى أنه عثر على ترجمته في لسان الميزان.

إن انطواء شخصية الشريف الرضي على قوة الطبع ، وعلى السماحة ، اضفى عليها تفرداً متميزاً، ومن خلال ذلك كان التفرد العقلي والأدبي والسياسي ينمو نمواً طبيعياً من تربة النفس الغنية بالانفعال الصادق. ففي ميزة قوة الطبع ترعرعت قوة الارادة، والمطلبية السياسية، والقدرة الكفاحية وفن قيادة الناس (سواء في نقابة الطالبيين، أو في مواسم الحج، أو في النظر في المظالم).

وفي ميزة السماحة، نمت النزعة الديمقراطية، وروح التعايش المذهبي واخذت ذهنية الشاعر المتفتحة مداها الوافر في المعرفة، والحوار، والابداع، والانتاج الأدبي والعلمي، اضافة إلى الشعر.

ومن وحدة المصدرين اللذين شكلا اساس النفس وتربتها، تكونت للقريحة الشعرية بصمات قوية لا تخص احداً غير الشرف الرضي. كما أن العشق الذي كان رحلة طويلة في حياة الشاعر الرضي، استقى من ذينك المصدرين العلامات المميزة في تجربته الخاصة فجانب السماحة، وهو الجانب العاطفي، والانساني كان يستقبل (الهوى) بسرعة ، فيما كان جانب قوة الطبع يجعله متشبثاً بالعلاقة العاطفية بقوة، وهكذا كان، الامر - وسيظل دوماً - يبتدىء الحب بنظرة خاطفة، أو بلمسة يد غير مقصودة، أو بتبادل بضع كلمات في فرصة غير متوقعة ثم ينيخ بركابه على النفس اناخة المستقر الذي لا يريم.

وامتدت شجرة المعرفة في نفس الشريف الرضي بجذرين متوحدين كضفيرة واحدة (قوة الطبع، والسماحة) فكانت ثمار الشجرة منوعة في الشعر والآدب والعلم والسياسة، لأن نبوغ الشاعر وجد في السمات المتفردة للشخصية امدادات قوية: عقلية وعاطفية.

أي أن اتحاد العقل والقلب في السفر الطويل للشريف الرضي كان قد

أوجد الإغتراب الكبير في وسط بشري اتخذ ازدواجية العقل والقلب مصطلحاً له، وإذا ما حصل أن توفر انموذج بشري يعطي للقلب حقه، مثلما يعطي للعقل صلاحيته، فإن ذاك الانموذج- في احسن الأحوال- يعطي للقلب بعض حقه، وللعقل بعض صلاحيته لكنما الشريف الرضي فتح بوابات الجسد امام الشهقة التامة للقلب، وامام طلقات العقل التي لم تنقطع.

لقد رفع الحجاب بين العقل والقلب، في داخل نفسه، فكانت لهما رياضة مشتركة، ورفع الحجاب خارج نفسه، أمام الناس، فكان للقلب والعقل مهرجان كبير لم يشترك فيه أحد سواه هو! اليس هو واحداً متكثراً بما حباه الله به من موهبة ونبوغ ومؤهلات؟ ورغم تناقض السمات عند سواه، فإنها تضايقت فيه، فكانت فيه خيالية الشاعر، وواقعية السياسي، وموسوعية العقلاني وجدية العالم ورقة العاشق، وعناد المغامر.

وكان فيه طبع الرئاسة، ونزعة الجواب، وهكذا ولد في الشريف الرضي انموذج العالم إلى جانب انموذج الشاعر، وكانت مؤلفاته العلمية في الأدب والنحو والفقه لا تقل شهرة عن شاعريته الرفيعة.

إن العلم وهو يتعامل مع الوقائع ومع التواريخ، ومع خلاصة الخبرات البشرية، يتطلب نقيض ما يتطلبه الشعر فحيث يعني الشعر الهجرة وراء الخيال والرؤيا، فإن العلم يعني المكوث نداً لمختبر، وفي دارة البحث والمواصلة، والتسجيل، والجرد، وتثبيت الحقائق.

إن الحقيقة العلمية، وهي غير الحقيقة الشعرية تحتاج إلى مجهود بشري مكرس لها، في انقطاع العالم ومكوثه في ميدان العمل العلمي، فكيف استطاع الشاعر الحر الشريف الرضي أن يفي بمستلزمات الحقيقة العلمية، وهو بطبيعته الشاعرية، الغرامية، المتجولة؟

إن جواب ذلك وارد في فرادة طبعه وطبيعته، فكان العالم الوجه الثاني

لشخصية الشريف الرضي الشاعر المجيد، فاستطاع أن يكون مبرزاً في ميادين العلوم اللغوية والشرعية، وفي الدراسات الأدبية، فصدرت له مؤلفات ثمينة من بينها: «المجازات النبوية» و«حقائق التأويل» و«أخبار قضاة بغداد» و«انتخاب الحسن من شعر الحسن» و «انتخاب شعر ابن الحجاج»و «تعليق خلاف الفقهاء» و«طيف الخيال» و«المتشابه في القرآن»و «مجاز القرآن» و«خصائص الأمة» و «انشراح الصدر في مختارات من الشعر» و«انشراح الصدور» و«سيرة الوالد الطاهر» و«مختصر امثال الشريف الرضي» وقدم المختارات من عبقرية علي بن أبي طالب ممثلة في الكتاب النادر: «نهج البلاغة» اضافة إلى العديد من المؤلفات والرسائل التي تفصح، ايما افصاح، عن توقد الذهن، وغنى التجربة، واتساع الأفق عند الشريف الرضي.

وكان الجانب العلمي - الدراسي - من حياة الشريف الرضي مناسباً لمكانته الدينية، ومسؤوليته في امارة الحج، بعكسه الشعر الذي كان يثير حفيظة الخصوم، ويؤلم المريدين الذين راهنوا على السياسة فقط.

لكن الشخصية الفذة، شخصية الشريف الرضي، سارت مشتملة بكل جوانب الإبداع في الشعر وفي علوم الأدب والفقه والشرع، مثلما سارت مشتملة برداء الرئاسة الذي اكتساه بفضل تأريخه العربي الأشم وامكاناته النادرة، وعلو محتده.

غير أن ما من ضرورة تجعل تفرد شخصية الشريف الرضي نوعاً من التغرب المثير لولا الجانب المهم في حياته، فقد شاءت الدنيا، دنياه، ودنيا منطقته العربية ودائرته الإجتماعية، أن يكون أميراً في العشق، مثلما هو أمير في موسم الحج، وفي السياسة.

وكثيرة هي الفعاليات النظرية التي قد لا ترتبط بفعاليات عملية، لأنها مجرد افكار وتصورات، وأخيلة، وقد يتخيل الإنسان ما شاء له الخيال، في

الشعـر، وفي السياسـة لكن العشق هو واقـع كـالخيـال، صلة بـين عـاشقٍ ومعشـوق ضمن مناخ اجتـماعي، وطبيعي. فهي حسيـة رغم كـل جـوانبهـا اللاحسية، وهي مفضوحة، رغم كل السرية، وهي ابدية رغم (الأنيّة).

ولم يوجد- قط- عاشق بدون معشوق. فكيف إذا كان العـاشق واسع التجربة ما اسرع ما كان قلبه يتعرض للطرق؟!

هناك في النصف الثاني من القرن الرابع الهجري، في اجـواء التعصب والفتن والصراعـات الداميـة، هنـاك في زمن المكـايـد والـدسـائس والشغب العنيف، كـان شخصٌ يتحلى بكـل إمارات النبـل والشرف والـورع، وبكـل مخايل النبوغ في الشعر والأدب والعلم، شخص مشبع بالـطموح، وهـو سيد قومه واهله، يدخل عصره وبانتظاره المـريدون الـذين يريـدون ممتشقاً سيفـه فقط، إلا أنـه يتقحم العصر بابتسـامة القلب، عـاشقاً كبيـراً، ظل في الحب غلاماً تتقصاه الجميلات.

كان للشريف الرضي مـذهب في العشق، وفي أنشطة سيـاسية وفكـرية كثيرة تتوفـر امكانيـة صياغـة المذهب، أمـا في العشق، فإن صيـاغة مـذهب للعشق عمل مذهل.

وقـد توصـل الشريف الـرضي إلى رسم مـذهبـه في العشق من خـلال تجربته الواقعية المثيرة. ويبدو أن ثراء شخصيته كان يدفع به في كل اهتمام إلى اقصـاه ففي الشعـر يصبـح اشعـر قـريش ومن اشهـر شعـراء العـرب، وفي السيـاسة يصبـح نائب الخليفـة، أمـير الحـج، نقيب الـطالبيـن، وفي الأدب والفقـه والنحو يصبـح عـالمـاً لا يشق لـه غبـار، ثم في العشق يصبـح أمـير العشاق، ومعجم العشق.

لقد برز عمر بن أبي ربيعة في الغرام فكان شعره ديوان حياته وغرامياته إلا أنه لم يطرح مـذهباً، لأنـه كان يتبـع إحسـاساتـه اللذية، وبـرز الشعراء

العـرب الذين اعـطى كل واحـد منهم قلبه لفاتنـةٍ واحـدة، (قيس لليـلى، وجميل لبثينة، وكثير لعزة،. . . إلـخ) فابـدعوا واجـادوا، لكنهم أعطوا طـرازاً من الحب، رائعاً، ومتميزاً، إنما لم يصل إلى مستوى المذهب في العشق.

كان الشريف الرضي لوحده تجربة متكاملة، فقد انـدفع في العشق إلى النقطة البعيدة، إلى حبة القلب، وما ابعدها! فأي واحدٍ ذلك الذي استـطاع أن يصـل إلى حبة قلبـه؛ (ومن الحبّة، حبة القلب، جـاء الحب!) فينـاغيهـا، ويشاورها، ويستجيب لهتفتها! وأي واحدٍ ذلـك الذي يستـطيع الـوصول إلى حبة قلب محبوبه، فيقدم لها صلاة الروح، واذعان الولاء، ومناجاة التدليـل، وواجب الحراسة العشق هو جسر الغيب ما بين حبات القلوب المتآلفة.

وفي ملكـوت العشق، كان الشريف الـرضي عذريـاً في عـالم الـرغبـة، وراغباً في عالم العـذراوية، ومـزيجاً رائقـاً من الزهـد، والرغبـة، مع كـائنات بشرية جميلة، مترعة بفيض الجمال، المطل من العيون والخدود، والشفاه، وفي مواسم الحج، التي يحضرها أميراً وشهيراً كان كـل شيء يلتمع بسرعـة، مثل برق. عين البدوية التي تومض إيماضة الدنف، وخدها الـذي يتضرج بحمرة الاشتهـاء الخجول، وينشق الهـوى من صندوق الجسم كـزلـزال، لا يتجـاوز عمره عمر موسم الحج، ثم ينقضي كل شيء، وكأن نبضـة القلب التي يتعلق بها مصير حياة بأكملها، ليست إلا نغمة، حائرة، تائهة، غـريبة، سرعـان ما يرميها اعصار الكون في وديان العدم.

كان الشعراء العشاق يطاردون نسـاءهم الفاتنـات، والشعر فضيحـة. وحتى لو لم تكن للشاعر قصة غرامية، فإنه يتناول قصة الآخـر محيلاً إيـاها في شعره إلى موضـوع، وتجربـة، فكيف إذا كان الشاعر يكتوي بنـار الحب إنه يستصرخ الـزمان،، ويستنـطق الموتى، ويشهـد الأحيـاء والأمـوات والأشيـاء والكثبان والجداول والاباعر على فرحه أو على حزنه.

ولقد شهدت جزيرة العرب عشرات الشعراء، الـذين كانـوا في الغرام مثل «دون جوان»و «كازانوفا» لكن امارة العشق ظلت معقودة من نواصيهـا، إلى الشريف الرضي.

ففي صلب طبعه كان جمالياً كبيـراً. يقتنص سرحات الإشراق الفـاتن على الوجوه، لأنه كان يراها بعين القلب التي لا تخطىء. فكان غير محتاج إلى مقـاييس الإحساس، لادراك جمـال الجميل، لأن الـوتر واحـد بين (النـاظـر) و(المنظور)، فرنةٌ (هنا) تنشيء إلفتها النغمية (هناك)!

الشعـور بالجـمال كان لـدى الشريف الرضي أكـبر من شعـور الشعـراء الاخرين، الذين وصلوا إلى الحب من خلال جذبات الإحساس. لقد عشقوا من خـلال تأثـير العيون الحـوراء، والحـواجب الـزجـاء، والشفـاه اللميـاء، والأعنـاق المسبوكـة، والصدور النـاهدة، وغـير ذلك مما نطقت بهم قصـائـد الغـزل، أي أنهم عشقوا الحسّي، والجـزئي، ثم استـوطنـوا الحسي والجـزئي ايضـاً، وعجزوا- بسبب الـطبيعـة البشريـة والثقـافيـة، طبيعتهم- عن رفـع الحسي إلى مستـوى الأبدي، والجـزئي إلى مستوى الكـلي، فجـاءت قصـائـد الغزل متشابهة إلا من فروق بسيـطة، فهذا شـاعر يحب امـرأة سمراء، وذاك يحب امـرأة شقـراء. هـذا يحب امـرأة قصـيرة، وذاك يحب امـرأة طـويلة، واخضعوا تسمية (القلب) إن جاءت في اشعارهم، إلى سيـطرة الرغبـة ونداء اللذة، فكـأن القلب بـريـد الشهـوة، أو قنـاعهـا المحـترم الـذي تستخـدمـه للتضليـل، والتخلص من الفضائـح ولتعفيف الشعـر من الإستخـدامـات العضوية الأخـرى المحرجـة. غير ذلـك، تمامـاً، كان الشريف الـرضي، لأن مفاهيمه عن الجمال كانت من معطيات نفسـه الشريفة، المتسـامية.. فهـو في علاقته بالناس، وبالطبيعة، كان يتصل بالاعـماق المشتركـة، مبرهنـاً بتجربتـه الحياتية. إنه والناس والطبيعة من عمق واجد وينبوع واحد.

وحين كان الناس لا يرون إلا الظواهر الخارجية، كان هو مدركاً أن في

داخله تضطرم دفعات الينابيع الجوفية للطبيعة والكون، فكان يصغي إليها أتم اصغاء، وكانت هي التي تهديه، وتقوده، وتجعله صادق مع نفسه ومع سواه، فالذي يدرك حركة الاعماق في الكون الهائل ويصيخ سمعاً لإيقاعها المستضاف في جسده، هو- وحده- الذي لا تغره المظاهر وهو وحده الذي تتفتح عينه متعرفة على المدى الأكبر، فيعود يرى ما لا يراه الآخرون، ويبتدىء بالكلي مترحلاً من خلاله إلى ملاحظة الجزئي، فالعين، عين الامرأة الفاتنة، أو عين الغزال، ليست جميلة بذاتها، بل هي جميلة في علاقتها بـ (كلية) الطيف الشمسي للجمال.

فالشعور بالجمال، هو تصور بالكلية، والأبدية الجمالية، هو انتساب إلى جلال الكون المتوحد في الجمالات التي يهرع إليها المتولهون، هرع العطشان إلى الماء الزلال.

وفي كل عشق تمثل العين مركز التأثير الذي يسرع بارسال برقيته إلى القلب، ولم يفت المفكرين والشعراء تشبيه العين بالشمس، في تأثيرها على الأحياء، فيما تعطي وفيما تميت، وكذلك في شكلها.

وكما سترى، فإن الشريف الرضي اعطى للعين رسالة كونية، لأن العيون المقدسة هي التي تزيح الحجب السميكة، فترى ما ليس يرى، وتقرب ما هو متباعد وتدمج ما هو متعارض، وتلغي اضطراب الاشكال الخارجية في فنية وجمالية النسق.

إن (كلية) الجمال وكلية الجلال، وكلية الحق، وكلية العدل والخير، هي شرط العشق الصحيح، والوله الذي تقضي الأيام ولا ينقضي.

والشاعر الجمالي، وأي جمالي آخر، شاعراً كان أو غير شاعر، يحمل في داخله معزوفات الكون الجميلة التي يستدل بها على كل جميل. ومن ذلك (العلو) الذي تتوحد فيه كليات الجمال والجلال والخير، يعاين النظر كل

ما هو جميل فيفرد له مكانة الخصوص. وفي وحدة الأفق الجمالي الكوني تتضايف وتتجاور الأشياء الجميلة مثلما تتضايف وتتعايش وتتكامل مويجات وامواج البحر في الإيقاع الأزلي لها في الصخب وفي الهدوء.

لقد أتاحت الرؤية الجمالية الشمولية للشاعر الشريف الرضي استيعاب الجميل بدلالات الجلال خلافاً لما حصل لدى الشعراء الغزليين، الحسيين الذين اطنبوا في ذكر المفاتن الجسدية.

إن عين الشريف الرضي، هي عين الجمال التي رأت بروح الجلال، لذلك ما كان له كبير مغنم في الأوصاف الحسيّة المباشرة، وحسبه أنه كان عفيفاً قوي المروءة.

وهو القائل:

«ويمنعني العفاف كأن بيني وبين مآربي منه هضابا»

والقائل أيضاً:

«أرى برد العفاف اغضُّ حسناً على رجل من البُرد القشيب»

ومذهب الشريف الرضي في العشق، يرقى بتغرد السمات الشخصية له إلى مستوى غربة واغتراب المحبين الكبار، الذين عصفت بحيواتهم تنهيدة الشوق في كونية سريعة التبديل لاجزائها المعطوبة، أو المقطوعة، أو التي حان أو يحين أجلها.

اغتراب الحب

إن الرؤية الشمولية للشريف الرضي في الحب والجمال هي لسان حاله، وصفته الماثلة في طبيعته، وطبعه.

ولمعرفة خصوصية تجربة الشريف الرضي في العشق، ينبغي إحالة

العشق إلى الحب وهو الدائرة الكبرى للقلب.

وسبب الإقرار بشمولية الحب على العشق، فذلك لأن العشق مرتبة من مراتب الحب، التي أولها الهوى، ثم العلاقة، ثم الكلف، ثم العشق، ثم الشغف، ثم التتيُّم، ثم الشوق (١١٦).

وإذا كانت تلك هي مراتب الحب ودرجته، فإن الحب يتسع ويتنوع بعدة أنواع، فهناك حب الأهل، وحب الأصدقاء، وحب المرأة، وحب الأشياء، وحب الطبيعة، وهناك الحب الروحي، الخ..

وأحسن عشق العاشقين إذا كانوا محبين، تطهرت نفوسهم من البغضاء، وتسامت بالحنان والمودة والحب.

ويظهر في مجمل شعر الشريف الرضي أنه محب كبير يخفق قلبه بحب الأهل والأصدقاء والناس والأماكن، أي أن حبه للمرأة كان من نور جنس مشع بالحب، ممتلىء بالعاطفة. والبشر في طبائعهم، يتباينون، فبعضهم خلق ألوفاً، محباً، والبعض الآخر خلق مبغضاً، لئيماً، والبعض الثالث موزع بين الإثنين يحب حيناً، ويبغض حيناً، تسوقه دواعي المصلحة والرغبة فلا يستجيب لغيرها. أي أن عقله وقلبه يخدمان تيار غريزته غير المشذبة.

وكانت نفس الشريف الرضي المتطهرة بالشرف والإستقامة والسخاء، قد ألفت الحب، فلا عجب إن كان ذلك عاملاً مهماً من عوامل غربته، بل في المقدمة منها. ولا بد من الإشارة إلى عام تغريبي كبير، كان له أثره البالغ في نفس الشاعر الحساسة، وتجربته في الحب، ذلك هو وفاة الأم.

فكما كانت نكبة الشاعر بسجن والده نكبة الحب الأولى، فإن نكبته الكبرى حلت بموت أمه كانت بعد سجن أبيه التعويض العاطفي الكبير له.

لقد اهتزت أركان حياته اهتزازاً عنيفاً، حين فقد محبوبته المقدسة أمه

(فاطمة بنت الحسين بن أحمد بن الحسن الناصر الأصم) التي أسبغت عليه نعم الحب، والرعاية، والحماية، فكانت له خيمة، وسنداً، وأي سند!

فكانت أول غربة هي غربة فقدانه لها، وقبل ذلك قال جده (زين العابدين): «فقد الأحبة غربة»!

وتبوح قصائد الرثاء - عادة - بتلك الغربة بوحاً بعيداً، عند موت الأم خاصة، فكانت قصيدة (المتنبي) في رثاء جدته التي أحبها حباً شديداً، لأنها كانت له أماً وأباً، تفجيعاً كبيراً، فصاح طعيناً، وهو يحن إلى الكأس التي شربت بها، ويهوى لمثواها التراب:

ألا لا أري الأحداث حمداً ولا ذمّا ... فما بطشها جهلاً ولا كفُّها حلما
إلى مثل ما كان الفتى مرجع الفتى ... يعود كما أُبدي ويُكري كما أرمى
لك الله من مفجوعةٍ بحبيبها ... قتيلة شوقٍ غير ملحقها وصما
أحنُّ إلى الكأس التي شربتْ بها ... وأهوى لمثواها الترابَ وما ضمَّا

ويقول:

وما آنسدَّتِ الدنيا عليَّ لضيقها ... ولكنَّ طرفاً لا أراكِ به أعمى
فوا أسفا أن لا أكبَّ مقبِّلاً ... لرأسكِ والصدرِ اللذين ملئا حزما

كذلك كانت رثائية أبي العلاء (المعري) حينما دهمته مصيبة أمه، في سنة ٤٠٠ هـ وكان في السابعة والثلاثين من عمره:

دعا الله أُمَّاً ليت أني أمامها ... دُعيتُ ولو أن الهواجرَ آصالُ
مضت وكأني مُرضَعٌ وقد آرتقتْ ... بي السنُّ حتى أشكل الفودَ أشكالُ

وقال أيضاً:

مضتْ وقد آكتهلتُ فخلتُ أني ... رضيعٌ ما بلغتُ مدى الفطامِ

كما كان يقول في رسالة له إلى خاله:

«وحزني لفقدها كنعيم أهل الجنة، كلما نَفِدَ جدَّدَ».

فكيف يكون الرثاء، وكيف تكون الغربة، والشريف الرضي تطوّح به الفادحة الفدحاء، بموت الأم التي تجسدت فيها كل ضروب المحبة، والعون، والحنان، فكان له في «همزيته» جئير، يتناوح فيه كل الباكين الذين فقدوا في أنفسهم شيئاً لا يسترجع بعد فقْد الأم:

أبكيكِ لو نقع الغليلُ بكائي   وأقول لو ذهب المقال بدائي
وأعوذ بالصبر الجميل تعزِّياً   لو كان بالصبر الجميل عزائي
طوراً تكاثرني الدموع وتارة   آوي إلى أكرومتي وحيائي
كم عبرةٍ موَّهتها بأناملي   وسترتها متجمِّلاً بردائي
أُبدي التجلُّد للعدوِّ ولو درى   بتململي لقد آشتفى أعدائي
ما كنتُ أذخرُ في فداكِ رغيبةً   لو كان يرجع ميِّتٌ بفداءِ

....

فارقتُ فيكِ تماسكي وتجمُّلي   ونسيتُ فيكِ تعزُّزي وإبائي
وصنعتُ ما ثلم الوقار صنيعه   مما عراني من جوى البُرَحاءِ
كم زفرةٍ ضعفت فصارت أنَّةً   تمَّمتُها بتنفُّس الصُّعَداءِ
لهفان أنزو في حبائل كبةٍ   ملكتْ عليَّ جلادتي وغنائي
وجرى الزمان على عوائد كيده   في قلب آمالي وعكس رجائي
قد كنتُ آمل أن أكون لكِ الفدا   مما ألمَّ فكنتِ أنتِ فدائي

....

لو كان مثلكِ كلُّ أُمٍّ برَّةٍ   غنيَ البنون بها عن الآباءِ
كيف السلوُّ وكل موقع لحظةٍ   أثرٌ لفضلكِ خالدٌ بإزائي
فعلات معروفٍ تقرُّ نواظري   فتكون أجلب جالبٍ لبكائي

ويختتم القصيدة:

صـلّى عليكِ ومـا فقدتِ صـلاتَـه   قبـل الـردى وجـزاكِ أيَّ جـزاءِ
لو كان يبلغـكِ الصفيح رسـائلي   أو كن يسمعـكِ الـتراب نـدائي
لسمعتِ طـول تـأوُّهي وتفجُّعي   وعلمت حسن رعـايتي ووفـائي
كـان آرتكاضي في حشـاك مسبباً   ركض الغليـل عليـكِ في أحشائي(١١٧)

ولا يدري أحد بما يساور النفوس الكبيرة المرهفة، وهي تبكي الأم قبل موتها، من وجع الخوف عليها، ومن مجرد التفكير بموتها القادم لا محالة. فـإن كانت قصائد رثاء الأمهات عند الموت راعفة بـالعذاب الهـائل، فـإن قصائـد الـرثاء المصمتـة قبل المـوت، حين يحـين هاجس القلق عـلى مصـير الأم التي ستغنى، هي الأكثر عظمة في عزاء اللغة، لأن الغربـة من خشية مـوت الأم، هي من علامات ذوي النفوس الكبيرة.

لكن جزع الخوف والتوقع الفاجع، لا يسجل نفسه لأحد، لأنه يدلهم على نفسه كظلمة الظلمة، ولكل ظلمة سرداب، ولكل سرداب اغتراب ليس له باب، إلاّ باب الصبر.

إن الأرواح الكـريمة هي وحـدها التي جبلت للحب الصحيـح، الحب الـذي يبتدىء بمـركز الـدائرة: (حب الأم) ويتسـع ليشمـل كـل لـطف الله المتجسد في كائناته الحية وغير الحية.

ولم يستطع الشريف الرضي، بعـد وفـاة أمـه الـطاهـرة، أن يحتمي من غوائل (الزمان)، لأنه عاش في مسار الثنائيـة المعذبـة: الحب وفقدان الحب. وإذا كان الغريب من لا حبيب له، فإن الذي يفقد الحبيب تشطره الغربة شطراً دامياً، وترميه في الآبار البعيدة التي لا قاع لها، مقذوفاً أبداً، ناشجاً أبداً، لا أمل له في أن يحقق التلاؤم مع الزمن.

ماذا يفعل الإنسان الذي يـوزع دموعـه هدايـا المشاركـة الحزينـة لمآتم

الغرباء؟ ماذا يفعل من بلغ به فيض الكرم أن يكون اللمسة الحانية، والغطاء العطوف، وخيمة الرقة، فيتفجع للموتى الذين مضوا، وللأحياء الذين سيمضون؟

كانت عينه حزينة، لكن نظرها لشديد. وقد امتدت منظوراتها الأليفة، المنبسطة أمام تفرد نظراته، فتقاطع الإثنان (الناظر والمنظور) في كلمة السر.

أَوَلَمْ يشرح عبد الله بن طاهر الحب للمأمون قائلاً: «يا أمير المؤمنين، إذا تقادحت جواهر النفوس المتقاطعة بوصل المشاكلة، انبعثت منها لمحة نور تستضيء بها بواطن الأعضاء، فتتحرك لإشراقها طبائع الحياة، فيصوَّر من ذلك خُلُقٌ حاصرٌ للنفس متصل بخواطرها يسمَّى الحب»؟

إن كيمياء الكون جاهزة تماماً لإنتاج اللقاح، وهي لا تترقب غير حركة الذرات. ولقد قهر الشريف الرضي غربته بالحب، مثلما تقهر الأرض الجفاف بالماء، لكن لعبة الفصول الأربعة أخطر حكمة على الإطلاق. فكلمة (وصل) يعقبه انقطاع، وتكر مسبحة الزمن.

وكانت النفس الحزينة، نفس الشريف الرضي، المملوءة بحس الجمال، التي تكرمت فيها (العين) أحسن تكريم، فظلت مرهونة للنظر.

وهذا هو اختصاص العين: أن تنظر، وتتفحص، وتستقرىء معالم الجمال، فتسحب مواقع الفتنة المبتعدة على بساط التقارب، فيتحقق العناق.

وليست كل عين عيناً، وإن كانت قدرة الله تبارك وتعالى قد نسجت كل شيء. فثمة عين كعين الأفعى، وأخرى كعين الضب، وثالثة كعين الديك ورابعة كعين السمكة، وأخرى كعين الوحش، ففي إنسان العين خلاصة النفس، وجوهرها، والعين مرسومة على قدر طبيعة الكائن الحي، فلا تستبدل القنافذ والجنادب والفئران عيونها، فكل عين هي خلاصة رسم

الجوهر للكائن الحي.

والعين الكريمة، عين القلب، عندما تنظر إلى الكائنات البديعة، فإنها ترشها بعطر المرحمة، وأثير الإعتناء، فهي تمسح، ولا تجرح، تغسل ولا تُقذي، تتحنن ولا تقسو، إنها الخدمة التامة!

ولقد عرف الجماليون، أن نظر العين الكريمة إلى الجميل يزيد النظرة حدة، وكذلك يزيد (الجميل) جمالاً، فجاء في الشهاب: «النظر إلى المرأة الحسناء يزيد في البصر»، وقال أبو النواس:

يزيدك وجهه حسناً   إذا ما زدته نظرا

وهذا من فعل واحدية «المعزف»، ففيض العطاء، يرفع نسبة الإمتلاء في الكائنات المتعازفة، فيزداد بريق عين الرائي، ويثب جمال المرئي إلى منافذ الإتصال، فيرفع الحجاب بين المتحابين، ويحل الكشف الذي سرعان ما يصنع قوس حجابه الذي يتراعى الأحباب تحته. إنهم يلغون الحجاب بينهم، ثم يصنعون الحجاب الذي يعزلهم عن الناس. وهكذا الحب دوماً، رفع الحجب، وإنزال الحجب. وكل كشف لا بد أن يأتيه حجاب.

وحيرة العين أنها تتحدى الحواجز والستائر، كيما تسلم على (الجميل)، لكنها إذا ما أفلحت، عاجلتها النفس بالشروط القاسية، شروط العزلة عن الناس، خشية عذل العاذلين، وارتياباً من خطف العيون التي هي بالمرصاد.

لكن العزلة - هذه - على ما فيها من معانٍ فيزيولوجية، تحمل من دلالات الحركة، أبعد من الإبحار والسفر إلى أطراف الكون. فالإختلاء بالمحبوب هو ذروة السياحة.

فالعين التي ترى هي التي تحدد «الزمن»، وتغير أبعاده، ما دامت رسولاً للقلب، وعيناً له. كذلك، تسحب عن المحبوب نياط قلب العاشق،

فهي منجم جمال المحبوب وموضع أنواره، فتجذب الأحداق روح الجمال المرهف وتفتك به كما فتكت بالشريف الرضي الذي كانت مملكته القلب والعين، وكان مصرع (قلبه وعينه) بسلاح عين الجميل، فقال:

يا قلبُ ما لك لا تفيق وقد رأت ... عيناك كيف مصارع العشاقِ
فتكت به الحدقُ المراضُ ولم تزلْ ... تشجي القلوب جناية الأحداقِ

وفي جميع قلبيات الشريف الرضي، تدور العين، فيستشعر الشريف الرضي الجمال فيراه بميزان العين ثم يختمه بختم القلب، فما كان يدري الحب إلَّا بعد أن تعرضت العين إلى العين فقال:

وما كنتُ أدري الحبَّ حتى تعرَّضت ... عيون ظباءٍ بالمدينة عينِ
فوالله ما أدري الغداة رميننا ... عن النبع أم عن أعينٍ وجفونِ
بكلٍّ حشىً منا رميَّة نابلٍ ... قويٍّ على الأحشاء غير أمينِ
فررتُ بطرفي من سهام لحاظها ... وهل تتلقى أسهمٌ بعيونِ
وقالوا آنْتجعْ رعيَ الهوى من بلاده ... فهذا معاذٌ من جوىً وحنينِ
جلون الحداق النجل وهي سقامنا ... وواريـن أجياداً وسود قرونِ
ولولا العيون النجل ما قادنا الهوى ... لكلٍّ لبانٍ واضحٍ وجبينِ
يلجلجن قضبان البشام عشيَّةً ... على ثَغَبٍ من ريقهنَّ معينِ
ترى برداً يُعدي إلى القلب برده ... فينقعُ من قبل المذاق بحينِ
تماسكتُ لما خالط اللب لحظها ... وقد جنَّ منه القلب أيَّ جنونِ
وما كان إلَّا وقفةً ثم لم تدعْ ... دواعي الهوى منهن غير ظنوني
نصصتُ المطايا أبتغي رشد مذهبي ... فأقلعن عني والغواية دوني

وقوله في واحدة من لواحق الحجازيات، ذاكراً فعل اللحظ:

يا رفيقيَّ قفا نِضويكما ... بين أعلام النقا والمنحنى

وانشـدا قلبي فقـد ضيَّعتـه　　بـآختيـاري بـين جمـعٍ ومنى
عـارضـا السرب فـإن كـان فتىً　　بـالعيـون النجـل يقضي فـأنـا
إن مـن شـاط عـلى ألحـاظهـا　　ضعف من شاط على طـول القنا

وقوله:

يـا صـاحبيَّ تـروَّحـا بمـطيَّتي　　إن الـظبـاء بـذي الأراك سلبنني
سـيرا فقـد وقف الـطعينُ لمـا بـه　　مستسلماً ونجـا الـذي لم يـطعنِ
مـا سرَّني وقنـا اللحـاظ تنـوشني　　اني هنـاك قتيـل غـير الأعـينِ

وقد كان عشق الشريف الرضي معايشة رضية بين الحب والزهد.. ورث الزهد وراثة روحية، كما ورثه وراثة ثقافية. وفي تاريخ الشعر العربي، كان الشعراء الزهاد موجودين منذ القرون الهجرية الأولى، وهم أسبق من الشعراء العذريين، ومنهم عبد الرحمن بن أبي عمار الشهير بالتعس، وعروة ابن أذينة، ويحيي بن مالك وغيرهم(١١٨).

بعبارة أخرى إن الشعر العربي نقل خطاً بيانياً لأفكار الزهد من خلال الشعراء الأتقياء، ثم تطورت المؤثرات الزهدية في الشعر فأخذت تعبير العشق القلبي الذي عرف به الشعراء العذريون، فكان الشريف الرضي امتداداً أصيلاً للزاهدين ومستوعباً استيعاباً عميقاً لحكمة الموت التي نبع منها كل زهد إسلامي أو غير إسلامي.

وقد قال:

قـد آن أن يسمعـك الصـوتُ　　أنـائـمٌ قـلبـك أم مـيـتُ
يـا بـانيَ البيـت عـلى غـرَّة　　أمـامـك المـنـزلُ والبـيـتُ
أيجـزع المـرء لمـا فـاتـه　　وكـلُّ مـا يـدركـه فـوتُ
وإنمـا الـدنيـا عـلى طـولها　　ثـنـيَّـة مـطلعـهـا المـوتُ

ولكن زهدية الشريف الرضي ليست تنسكاً ورهبانية، بل هي معرفة

بالموت من خلال الحياة، فكانت روحه المشدودة بين قطبي الحياة والموت، تنبض بالحياة، بأعلى أصواتها الحرة، وتستجيب لحكمة الموت، بصورة مبادىء أخلاقية صارمة. والقلب هو القادر على تلبية نداءات الحياة الحرة، والتعري أمام الموت بقانون الحرية.

فالقلب هو الـ (أنا) بكل علنيتها واستبطاناتها. وهو - بالنتيجة - يصطفي الروحي والحسي اصطفاءً شفافاً فيؤلفهما خير مؤالفة.

والقلب، قلب الشريف الرضي، كالميزان العادل الذي يتحسس بأوزان الجمال، فهو يلتهب التهاباً شديداً، ويضيق، عندما يدرك أنه لا يتحمل الحبس الطويل في داخل صدره، والمحبوب خارج أسوار الصدر يتلألأ، ولكن كنجم قطبي ما أبعده، وإن ذلك التناقض الذي كان يتجرعه القلب، يظل - دائماً - عنوان تجربة الزهد والعشق، فالقلب في بسط وقبض، في عطاء وأخذ، في امتلاء وفروغ، في جذب وطرد، إنه مشدود بين العلوي والأرضي، وبين الروحي والحسي انشداداً لا تفلت منه.

إن هجرات الروح ليس لها مستودع غير القلب، الذي يضيف عند الامتلاء بالحب والحسرة فيتسع اللسان بالعبارة.

وتلك المناوبة، والمبادلة التي لجأ إليها للتعبير عن أشواقهم ومكابدتهم، وجدت عند الشريف الرضي واحداً من أمثلتها المهمة، وهو القائل عن صدق شعره:

وليس من الفراغ يثرن عني نفاثات يجيش بها الجنانُ
ولكن مهجة مُلِئتْ ففاضتْ وضاق القلب واتسع اللسانُ

ان القلب يضيق حيث يمتلىء، ويمتلىء حيث يضيق، واللسان أداة القلب الناطقة. وفي واقع المحبين والجماليين، يأخذ القلب دلالات مكثفة

ويصبح الرمز المقدس في حبهم وفي علاقاتهم.

وربما استعار العديد من المتصوفة وشعراء الغزل من الشريف الرضي «قلبياته» التي ازدان بها شعره، فلطالما كان (القلب) ملهمه، ومرشده، ومنبع إحساسه. وقد شكا إلى الله ذلك القلب (قلبه!) الذي كان يناضل من أجل الوصال، فإذا ما وصل كان انقطاعاً. لقد كان قلبه مشنوقاً بين قطبي التوتر، وكانت نفسه تعرج بين الارتواء والعطش، بين البرد والهجير، بين الخميلة والرمضاء، فصرخت:

أشكو إلى الله قلباً لا قرار له ... قامت قيامته والناس أحياءُ
إن نال منكم وصالاً زاده سقماً ... كأن كل دواءٍ عنده داءُ
كأن قلبي يوم البين طار به ... من الرفاع نجيب الساق عدَّاءُ

إن سلطان القلب على الجسم والنفس يقوم عندما تتحقق العبودية. فحينها يكون القلب مملوكاً للمحبوب، فإنه مستعبَد له - بفتح الباء - لكنه مستعبِد - بكسر الباء - لجسم صاحبه، فيفقد العقل سلطته، وتصبح وظيفة الحواس مبهمة خارج نطاق المحبوب.

ومسألة القلب، إنه معذب في الوصل وفي الهجر، إنه يحمل وجهي المرآة اللذين يرى فيهما الحاضر والغائب، الممكن والمستحيل، البهجة والخوف.

وسواء أكان الحبيب قريباً أو بعيداً فإن الشوق يحجز قلب الشاعر كما ذكر:

أقول وقد أرسلت أوَّل نظرةٍ ... ولم أرَ من أهوى قريباً إلى جنبي
لئن كنت أخليت المكان الذي أرى ... فهيهات أن يخلو مكانك من قلبي
وكنت أظن الشوق للبعد وحده ... ولم أدرِ أن الشوق للبعد والقربِ
خلا منك طرفي وامتلا منك خاطري ... كأنك من عيني نقلت إلى قلبي

إن صلة العين بالقلب، أعقد من أن يدرك بعدها الحقيقي، و«طوبى لمن كان له عين في قلبه» كما أورد (الشبلي).

فعين المحبوب تسكر قلب المحب، ويحار المحب بين سكرة قلبه وانكسار عينه أمام سطوة جمال المحبوب، فيصبح قابلاً للعبودية، مكتشفاً بذلك أسرار الحرية، فقال في بعض قلبياته:

هل ناشدٌ لي بعقيق الحمى ... غزيِّلاً مرَّ على الركبِ
أفلت من قانصه غرَّةً ... وعاد بالقلب إلى السربِ
واظمأ القلب إلى مالكٍ ... لا يحسن العدل على القلبِ
يعجب من عجبي به في الهوى ... واعجبي منه ومن عجبي
أقرب بالودِّ وينأى به ... ويلي على بعدك من قربِ
منعَّمٌ يعطف منه الصبا ... لعب الصبا بالغصن الرطبِ
بلادة النعمة في طبعه ... وربما ناقش في الحبِّ
أما آتقىٰ الله على ضعفه ... معذب القلب بلا ذنبِ
يا ماطلاً لي بديون الهوى ... من دلَّ عينيك على قلبي

ويختار القلب عبودية الحب، فيقلد المحبوب وسام الامارة، ويمنحه حق التصرف، واجداً في الطاعة سعادته الكبيرة. إن العبودية في حضرة المحبوب هي حرية المحب، أو طريقه لاكتشاف حريته التي معنى لها بحروفها ككلمة، بل هي معروفة بمضمونها، بمقادر ما يتهيأ للقلب من استبشار، ورضا، وسرور، فقال في بعض غزله:

رماني كالعدوِّ يريد قتلي ... فغالطني وقال أنا الحبيبُ
وأنكرني فعرَّفني إليه ... لظى الأنفاس والنظر المريبُ
وقالوا أطعت وكيف أعصي ... أميراً من رعيَّته القلوبُ

ولأن الهموم الطائلة تناوشت نفس الشريف الرضي، فإن قلبه أضحى

مثل طير كريم أضناه العطش، يبحث عن عين ماء، ما أن يريد الارتواء منها حتى يغيض ماؤها، أو تجف، أو تطمرها الكثبان الهائجة.

ولم يحظ تساؤل بتلك النبرة الطولانية التاسعة مثل تساؤل الشريف الرضي عن هموم قلبه، وهو يتخاطب:

ما للهموم كأنها نارٌ على قلبي تشبُّ

ألأجل ما حمل القلب من الحب، أصبح وجيبه شعراً؟ وأصبحت ناره أكبر من نار الغضا حتى أضحت الاستعارة بين القلب والنار اشعاراً بأن الجسم - كله! - في حالة احتراق، وحكم بالاعدام ينفذ يوماً بعد يوم، ترى أي قلب ذاك الذي كان يطلب الاقتداح به بدل الزناد:

يا قادحاً بالزنادِ مُرْ فاَقتدحْ بفؤادي
نار الغضا دون نار الـ ـقلوب والأكبادِ

الحسي والمثالي في العشق

إن حب الشريف الرضي الذي كان يقهر به الغربة، كمحاولة مستمرة لم تنقطع، كان يقهر به - أيضاً - في الشعر غربة الكلمة. ولم يكن حب الرضي حباً خيالياً، رمزياً، مثلما كان شعر العديد من المتصوفة الذي استخدموا عبارات الغزل، استخداماً مجازياً، فكانت اسماء النساء، هند، وليلى، وزينب، اسماء رمزية، يتوصلون من خلال قنواتها الظاهرية إلى الدلالة الروحية.

ذلك لان الرضي، وهو الزاهد الكبير، كان محباً حقيقياً، واقعياً، أي أن الحب، في حياته كان طبيعة سخية، صميمية.

إن واقعية الحب المعاش فعلاً، وضعت سمات خاصة في شعر الشريف

الرضي تقفى اثرها التصوفة، إلا أنهم اخفقوا في متابعتها إلى نهايتها الفعلية. فحيث كان الشريف الرضي يتمسك بالحب المباشر، كان المتصوفة يبتعدون عن واقعية الحب، إلى مثالية التعلق.

إن المتصوفة ارادوا الوصول إلى الله (تعالى) من خلال الكلمة، الإشارة، الرمز، لكن الشريف الرضي كان يعرف (الخالق) ويقدسه من خلال الحياة، أي من خلال حكمة الخالق في خلقه.

ويرتبط سلوك العديد من المتصوفة الذين عاشوا في رهبانية قاسية بأفكارهم المتكاملة الحلقات، في الحدود المعروفة للرؤية الصوفية الانموذجية، فشعرهم الغزلي متصل بموقفهم من الحب الالهي، كما ان نظريتهم في الحب الالهي جعلتهم يدحضون الشهوة الجنسية اصلاً، لذلك فهم عملياً مضربون عن الشهوة الجنسية وعن أي شكل من اشكال المعاشرة الزوجية، وهم بذلك ينسجمون مع انفسهم في تصوراتهم عن عالم الاحياء يكونه عالم ظل وتجسدات متغيرة، وسائرة إلى زوال.

وعندما يتكرر التشبيب بالمرأة في الشعر الصوفي، فذلك لأن المتصوفة يجدون في المرأة تجسيداً للعطاء الالهي، ومبدأ نظراً لمكانة المرأة في الخلق والعطاء ولمشابهتها الطبيعة الأم.

فالمرأة في الواقع هي انموذج الكيان البشري الاصل الذي تولد من رحمة الكائنات البشرية ذكوراً واناثاً، فهي تحفل بكل المعاني المتصلة بموضوع ميلاد الانسانية، والحياة البشرية بأسرها.

وعلى صعيد آخر، فإن الحب الذي يعد معبر المتصوفة إلى الحب الالهي، هو عالم الرجل الذي يسعى فيه إلى الفوز بالمرأة، فكل حياة الرجل ما هي إلّا قرابين تقدم إلى المرأة ابتغاءً للوصول إليها، فهي - اذن - محور الحب ومحتواه وهدفه.

وقد ملأت المرأة الشعر، حبيبة، وزوجة، ومقاتلة، واصبحت مقياساً للجمال، وانموذجاً خاصاً متفرداً له. وفي البداية كان الشعراء يصفون جمال المرأة بجمال الطبيعة (الشمس، القمر، الازهار، الماء الرقراق... الخ) الا أنهم بعد أن تثقفت نظرتهم الجمالية بفعل الحب، اصبحوا يصفون مجال الطبيعة بجمال المرأة، التي تنكسف الشمس أمام لألاء عينيها، ويغيب القمر أمام سناء ابتسامتها.

فوجد المتصوفة في متناولهم المرأة - الانموذج، والمرأة - الرمز المقدس، الذي يقدم من خلال الشعر تشبيهات متيسرة.

اذن: «لكي يتكشف لنا رمز المرأة في الغزل الذي اتخذ طابعاً صوفياً محضاً، لا بد لنا أن نتعرض لمقولتين جوهريتين: الأولى مقولة الحب الذي كان للصوفية فيه مذهب محدد. والثانية مقولة ماسماه (كورين) بالانثى ذات الطابع الابداعي الخالق.

وفيما يتعلق بالحب الالهي، ومكانة المرأة منه وتحديد موضعها داخل بنائه المتعالي نتبين تصنيف الصوفية للحب في تركيب تصاعدي بحسب موضوع المحبة، كما نتبين رمزية الانثى فيما عرف عندهم بمدارج التجلي الالهي»(١١٩).

وحينما ترد تعابير حسية، لذية، في شعر المتصوفة، فإن تعليل ذلك - في عرف بعض الدارسين - يتصل بالشهوة لا كغاية، وإنما بهدف استنباط دلالة ليس غير. فهي شهوة بدون مواقعة، وهي توصيف للبلوغ بواسطة التوتر الذي تعرضه الشهوة احسن وابلغ من سواها. فـ «ليست الشهوة التي نصادفها في رمزية الشعر الصوفي من قبيل ماهر داعر فاضح، كما أنها لا تؤول إلى اعراض باتولوجية فيما يعرف بالسيكو + بتوفيليا وإنما تبدو في الشعر الصوفي بمثابة وعي باطن وادراك ميتافيزيقي للجسم لا يخلو من طابع

الوجدان الذي يحدس العلاقة بين الجميل، وما هو مشتهى ومثير، بحيث لا تؤول الاثارة والتشهي إلى مجرد تملك واستحواذ أو إلى اعراض فسيولوجية محددة، وإنما تنحل إلى وعي بالغير بوصفه جسماً وامتداداً مصطبغاً بالروح والحياة، يكشف عن نفوذ الروحي في الفيزيائي وتوالج السماوي والارضي والطبيعي والمثالي.

وينم على أن الجسم منكشفاً في وضع شمول عضوي، يدخلنا بواسطة ما نستشعر فيه من شهوة - هي في حقيقة الأمر وعي وادراك للغير بوصفه جسماً يكشف في التجربة الصوفية عن صورة من صور التجلي - عالم الرؤية الثيوفانية، ويجعلنا نعانق الوجود في حيويته وغريزته المفعمة بالاسرار، متمثلة في ليل النشأة الجسمية وظلمات الغريزة».

ويوضح اصحاب الرأي المذكور عن التجربة الصوفية في الحب، أن ما تضمه التجربة من سمو روحي لا يحول دون التعبير عنها من خلال اشعار تبدو من حيث ظاهرها مفعمة بالشهوة، بشرط أن نتصور الشهوة عارية عن الفعل والمواقعة، وأن ندرك الجسم الذي هو موضوع الاشتهاء لا بوصفه مجرد امتداد خالص، وإنما على أنه شمول عضوي حاضر»[١٢٠].

ويقد ينطبق التحليل المذكور على مقاطع كبيرة من حياة العديد من المتصوفة، لكن ليس هناك جزم بأن جميع المتصوفة يجهلون المعنى العيني، الحسي، للشهوة التي تمازجت في النطفة، تمازج الشيء بذاته، في الكينونة.

إلا أنه يمكن القول إن تعالي المتصوفة على الشهوة كان امراً طبيعياً بسبب استغراقهم في التأملات والمواجيد، واستهلاكهم الناسوتية في حضرة اللاهوتية، فكان دنفهم الروحي يبعد عنهم نظرهم الذاتي إلى الغريزة. فنظرهم شاخص إلى المعبود، فكانوا يصلون في اللحظات العالية إلى غياب الذات، والوقوع في اخذة المشاهد.

في مفهوم وممارسة الشريف الرضي يأخذ الطابع الزهدي تأثيره المميز في حدود مختلفة عن حدود المتصوفة، ذلك لأن زهده غير متعالٍ على (الحسية)التي هي نتاج تفاعل القوى (النفسانية) و(الجسمانية) في مجرى العلاقة مع البشر والطبيعة والكون، والمرأة في حياة الشريف الرضي ليست مجرد رمز، كما أنها ليست تعبيراً ذا دلالة تمويهية بل هي هواء المختصة بالحب والعطاء، وهي تحمل الدلالتين: الواقعية والرمزية.

ولقد جاء في الحديث النبوي: «حبب إليَّ من دنياكم ثلاثاً: النساء والطيب وجعل قرة عيني في الصلاة».

وضمن التصور المذكور تلعب التقوى دورها المرشد والهادي في التسامي بالغريزة، وتطهيرها، وتنزيهها، وليس هناك من يؤنسن الغريزة ويشرفها، ويسمو بها مثل الحب.

وقد قال النبي الكريم: «المرء مع من أحب» وفي ذلك نبراس القلوب على طريق التآلف والمحبة.

وقد اغنى الشريف الرضي زهده من معرفته بالدنيا، المتقلبة والتي هي في أحسن الأحوال ليست غير النعيم الفاني، فقال فيها:

خطبتني الدنيا فقلتُ لها ارجعي   اني أراك كثيرة الازواج

ومثلما ترتسم في زهر العارفين الأحوال والمقامات ارتسمت في شعر الشريف الرضي احوال ومقامات للحب، توحد فيها الروحي بالحسي، والالهي بالارضي، فجاء في شعره القبض والبسط، والهيبة والأنس، والجمع والفرق، والغيبة والحضور، والصحو والسكر، والستر والتجلي، إنما في سياق تجربة واقعية مشهودة.

وهي تجربة ذات بعدين: الأول بعد الانفصال، الذي استولى عليه

بعد وفاة أمه، وبعد سلسلة المصائب والخذلان المريرة التي حضت بها حياته في جميع مراحلها المأساوية.

أما البعد الثاني فهو بعد قهر الانفصال وتحقيق الوحدة المفقودة من خلال الحب الحقيقي للجمالات التي جسدتها المرأة، فالحب في واحد من أهم اوصافه«هو استفادة وحدة المغترب» و «الحب يجلي اعظم قواه هناك حيث يقهر اعظم انفعال . . .».

كما ابصر ذلك بنظرة نافذة(بول تيليش)(١٢١) وارتسمت على اشعار الشريف الرضي الغزلية و(الحبية) بعامة مقامات واحوال مشابهة أو (مقاربة) لمقامات واحوال العارفين الزهاد، وكما فرضت فكرة(الحظ) نفسها على مذاهب التوكيليين، فإنما دخلت في (قلبيات) الشريف الرضي بطريقة قدرية في (مودات القلوب) ما هي إلا ارزاق:

«ياحسن الخلق قبيح الاخلاق ... اني على ذاك اليك مشتاق
رب مصافٍ علقٍ بمذاق ... ان مودات القلوب ارزاق»

وارزاق القلوب لا تحتاج إلى (فتوى) العقل، أو درايته، لأن ممراتها كأقواس الالتقاءات الكونية التي تستعصي على المعرفة العقلية، والإختيار، والإقرار، لذلك ليس امام المحبوب غير الاستكانة امام جبروت سلطان الحب والمحبوب:

وما الحب الا ذلة واستكانة ... لمولى ارى اعزازه ويرى ذلي
ولو انني خيرتُ من أن امنح الهوى ... لما اخترت ان اهوى هوىً ومعي عقلي
ولكنه لا رأي في الحب للفتى ... فيعلم يوماً ما يمر وما يُحلي
ولو كان في العشق اختيار لأقصرت ... قلوب عن المحبوب ما ضن بالبذل
ولم يحسن الصب التقاضي ودونه ... غريم مسيء لا يمل من المطل

وتتوزع نفس الشريف الرضي المتوترة بين (الشوق) و (الخوف) ويستبد به الشوق استبداد الداء الذي لا أمل في تجنبه.

والشوق هو مرتبة عليا في مدرج سمات النفس الولهانة، وهو- ايضاً- الحد الفاصل بين النفس الطيبة المتضوعة بأريج الحب، وبين النفس المستبدة، القاسية، التي لا تعرف غير البطش، واللعن، والكراهية. وتزكو النفس الادمية، بالأشواق، والحنين، حتى تصيح من فرط تشوقها إلى (الجميل) و (الجليل) و (العذب) ذات طقوس.

وتورق شجرة الحب، وتتبرعم بكل ما اوتيت من قدرة على إنجاب الألوان بنداء ملائكة الأشواق ومع أن طموح الشاعر هو اللقاء إلا أن(الحنين) هو الذي يفجر شاعرية الحب باقصى مدى وهكذا كان حنين الشريف الرضي:

أحنّ الى لقائك كل يوم ... واسأل عن ايابك كل وقت
واذكر ما مضى فيغيض صبري ... وتنفر عبرتي ويبوح صمتي
ولي قلب اذا ذكر التلاقي ... تظلم من يدِ البينِ المشتِ

وقوله:

من معيدٌ لي ايا ... مي بجزع السمراتِ
ولياليَّ بجمع ... ومنى والجمراتِ
وظباءٍ حالياتٍ ... كظباءٍ عاطلات
رائحاتٍ في جلابيب ... الدجى مختمراتِ
العقرِ القلب راحوا ... ام بعقرِ البدناتِ
كيف اودعتُ فؤادي ... اعيناً غير ثقاتِ
أيها القانصُ ما احـ ... ـسنت صيدَ الظبياتِ
فاتكَ السربُ وما زو ... دت غير الحسراتِ

يـا وقـوفـاً مـا وقفن ... في ظـلالِ الـسلمات
مـوقفاً يجمـع فتيـان ... الهـوى والـفتـيـاتِ
نتشـاكى مـا عنـانـا ... بـكـلام الـعـبراتِ
نـظرٌ يشغـلُ مـنـا ... كـل عـين بـقـذاةِ
كم نـأى بـالنفـر عنـا ... مـن غـزالٍ ومـهـاةِ
آه من جيـد الى الـدار ... كـثـير الـلفـتـاتِ
وغـرامٍ غـير مـاضي ... بـلقاءٍ غـير آتِ

. . . . إلخ

ويبلغ الشوق مبلغاً عظيماً فيصبح كما قال ابن عطاء وهـو يذكـر الشوق قائلاً: «وهو احتراق الاحشاء وتلهب القلوب، وتقطع الأكباد».

ويتزاحم الشوق فوق الشوق، فلم يعـد في الحشا مكـان خالٍ، وهـذه هي سنـة العشاق الكبـار الذين درجـوا عـلى الإشتيـاق، ولم تسكن نفـوسهم باللقاء.

وكـان(ابو عـلي الدقـاق) يفرق بـين الشوق والإشتيـاق بقولـه: الشوق يسكن باللقاء والرؤية، والإشتياق لا يزول باللقاء وفي هذاك المعنى انشدوا:

ما يرجع الطرفُ عنه عنـد رؤيته ... حتى يعود إليه الطرف مشتاقا(١٢٢)

فكانت فصول حياة الشريف الرضي، زاخـرة بالإشتيـاق، ولربمـا زخر الإشتياق نفسه بروح الشريف الرضي التي ساحت في فضاءات الطبيعة، مـع الطيور في شدوها ونـوحها، ومـع النجوم، ومـع المياه فتعـرف الإشتياق بـه، وتعرف هو بالإشتياق فصارت للمحبوب قداسة الذكرى، وهـو في هجرتـه لم يسعف الشاعر الرضي بغير الوجد والاحتراق والدموع التي لا تطفىء أي نـار فكأن روحه وجسده اصبحتا سمتين لاقاليم الروح والجسد في شخص الشاعر على هواهما، فحق له أن يتفجع:

يـا طائـر البان غـريداً عـلى فننٍ ... ما هاجَ نـوحك لي يـا طائـر البانِ
هـل أنت مبـلغ من هـام الفؤاد به ... إن الطليق يؤدي حـاجـة الـعـاني
ضـمانـة مـا جنـاهـا غير مقلته ... يوم الوداع فيا شـوقي إلى الجـاني
مغفـل عن همـومي في بلهنيـة ... ارعى النجوم وطـرفـاه قـريـران
ينـأى ويدنـو على خضراء مـورقة ... لعب النعـامي بـأوراقٍ وأغصـانِ
هيهات ماانت من وجدي ولا طربي ... ولا لقلبـك اشجـاني واحـزاني
ولا نـظرت إلى مـاءٍ عـلى ظمـأ ... تبغي الورود وليس الورد بـالداني
ولا فُجعتَ وقـد سارت ركـائبهم ... يـوم الغميم بـغـزلانٍ كغـزلان
لـولا تـذكـر ايـامي بـذي سلمٍ ... وعنـد رامـة اوطـاري وأوطـاني
لمـا قدحتُ بنـار الوجـد في كبدي ... ولا بللتُ بمـاء الـدمـع اجفـاني

إن ملويـة اشتياق الشريف الـرضي تشمل الحبيب الغـائب، والمحبـوب المهاجر، والمحبوب القريب الذي يوقف نفسه بعيداً عنه، فالإشتيـاق الممزوج بالشكوى يتـوجه نحـو الراحلين، والمـائتين، والمتغـربين أو الإشتيـاق الآخر، الذي لا شكوى فيه خارج تعذيب الذات فهو يخص الحبيب القريب.

في الإشتيـاق الشاكي يسيح الجزع في نفس الشريف الـرضي دون أن ييأس من آمل اللقاء فقال:

اتـرى نـراحُ مـني الـفـراق ... يـومـاً ونـأخـذ في التـلاقـي
فـأغض مـن جـزعـي وامحـو ... الـدمـع مـن بـين المـآقـي
واروح في ظـفـر الـقـوي ... وقـد انتصـفـت من الـفـراق

وقال كذلك:

خلوا عليك مطال السفر وانطلقوا ... واسلفـوك سلوا قبـل ان عشقـوا
لو ينصفوني الهوى ما كان عندهم ... بردالـقلوبوعـندي الشوق والارق

ويمدُ الإشتياق الباكي . . تذكراته الحزينة إلى الأمكنة، فالشاعر لم ينشغل فقط بتصفيح صور وجوه الاحبة في ذاكرته، إنما كان مهموماً بذكريات الامكنة التي شهدت قصص حبه، فكان يسيل به الحنين إلى كل مكان وشيء ونقطة.

فنشأ نوع من الإغتراب الحاد الذي يقرب-من حيث لذعته القاسية- من الغربة عن الأوطان، ذلك هو الإغتراب المكاني الذي يبدو أن(ابن الفارض) اخذه من فيض شاعرية الشريف الرضي، ومن بعض الجذور المشتركة التي تتصل بجذوة الشريف الرضي في التجربة والشعر، و«ليس هذا الإغتراب المكاني النابع من الحنين إلى مواطن الاحبة سوى اسقاط لاغتراب آخر ذي طابع عاطفي وجداني» وهو بذلك اغتراب مختلف عن اغتراب الشاعر القديم، الذي كان اغترابه المكاني قد «املته ظروف البيئة والمناخ»(١٢٣).

وقال الشريف الرضي العديد من القصائد المشبعة بالإغتراب المكاني المرافق للإشتياق الباكي ومنها هذه القصيدة التي قالها في شهر ربيع الاخر سنة ٣٩٢ هـ :

اقول وما حنت بذي الاثل ناقتي	قري لا ينل منك الحنين المرجعُ
تحنين الا ان بي لا بك الهوى	ولي لا لك اليوم الخليط المودعُ
وباتت تشكى تحت رحلي ضمانة	كلانا (اذا) يا ناق نضو مفجع
احست بنار في ضلوعي فاصبحت	يخب بها حر الغرام ويوضع
اروح بفتيان خماص من الجوى	لهم انةٌ في كل دار وادمع
اذا غرد الركب الخفي تأوهوا	لما وجدوا بعد النوى وتوجعوا
على ابرق الحنان كان حنيننا	وبالجزع مبكى ان مررنا ومجزع
تزافر صحبي يوم ذي الاثل زفرة	تذوب قلوب من لظاها وادمع
منازل لم تسلم عليهن مقلة	ولا جف بعد العين فيهن مدمع

فـدمعٌ عـلى بـالي الـديـار مفـرق ... وقـلب عـلى اهـل الـديـار مـوزع
ارى اليـأس حتى تعـزم النفس سلوة ... ويـرجـع بي داعي الغـرام فـاطمـع
ذكـرت الحمى ذكـر الـطريـد محله ... يـذاد مـذاد العـاطشـات ويـرجـع
واين الحمى لا الـدار بـالـدار بعـدهم ... ولا مـربـع بـعـد الحنـين مـربـع
سـلام على الاطـلال لا عن جنايـة ... وان كن يـأسا حـين لم يبق مـطمـع
فيـا قلب ان يـفن الـعـزاء فـطالمـا ... عهـدتـك بعـد الـطاعنـين تصـدع
وقـد كـان من قلبي الى الصـبر جـانب ... فـقلبي بعـد الـيـوم لـلصـبر اجمـع
نـعم عـادني عيـد الغـرام ونـبـهـت ... عـليّ الجـوى دار بمـيـثـاء بـلقـع
وطـارت بـقلبي نفـحـة غـضـويـة ... ينـفـسهـا حـال من الـروض ممـرعُ
اصـد حـيـاء لـلرفـاق وانمـا ... زمـامي منـقـاد مـع الشـوق طيـعُ
نـظرت الكثـيب الايمـن اليـوم نـظرة ... تـردُ اليَّ الـطرف يـدمي ويـدمـع

.... الخ

ولا تقف لـواعـج الشـوق عنـد الشريف الـرضي عنـد حـدود ذكـرى الاحباب وذكرى اماكن الغرام ومواطن الاحبة، بـل هي تشمل حلقـة جديدة هي حلقـة(ذكرى الـذكـرى) فتصبـح كـل قصـة حب جـديـد ضمن ذكـرى الـذكرى وكـأنها جزء من البحـر الكبير، بحـر الحب الزاخـر، الذي يشكـل الكناية الاصلية للاعماق النفسية للشريف الرضي.

ولتبدو النفس المعبأة بالحب والإشتياق و(ذكرى الذكرى) والرهـافة التي تنقلها من (ذكره) إلى (قصة حب جديد) إلى (حنين) و(ذكرى) وهلمجرا، بين حب واقعي واشواق تنتمي بمرور الزمن إلى عالم الطيف.. لتبدو وكـأن الحب مـوجود فيهـا قبل أن تعي نفسهـا.. أي تبدو وكـأن الحب مـاثـل في(الجبلة) الأولى قبل أن يكتسي هيكليته الادمية.

وقياساً إلى الحب الشاسع الممتد في طول حياته وعرضها فـإن أية قصـة

جديدة للحب تستثير الماضي الإشتياقي الهائل بأكمله محتمية بتراثه الكبير وبكل لذائذه وعذاباته.

وتزدحم النفس نفس الشاعر الرضي بذكرى(الذكريات)موزعة بين (الواقع) و (الخيال) بين (الفرح) و (العذاب) بين (التشبث) بالتجربة الراهنة و(الإنسراح) وراء تجارب ومغامرات القلب الماضية.

وهو حينما يتذكر، فإنَّ موضوعات ورموز (الحسي) و(الخيالي)، (الواقعي) و(المثالي)، (الحاضر) و(الماضي)، تتوالج في تصورات الشاعر، وتتداخل، وتتناسج، كأنها دورات حلزونية لا نهائية لا يمكن فرز النهايات فيها عن البدايات.

فلا تضيف قصة الحب الجديد في لذتها، لذة جديدة، أم استطرافاً جديداً لأن هوى الشريف الرضي قديم، وإن كان الحب سقيما، فإنَّه لا يصيب قلب سليماً، بل قلباً عليلاً منذ زمن الهوى في فكر وشعر الشريف الرضي، فقال في النسيب، في واحدة من حجازياته:

تذكرت بين المأزمين إلى منىً غزالاً رمى قلبي وراح سليما
لئن كنت أستحلي مواقع نبله فإني ألاقي غبَّهنَّ أليما
أصاب حراما ينشد الأجر غدوة فما عاد مأجوراً وعاد أثيما
فلو كان قلبي بارياً ما ألمته ولكن أسقاماً أصبن سقيما
إذا بلَّ من داءٍ أعادت له المها نكاساً إذا ما عاد عاد مقيما
يظنونني استطرفت داءً من الهوى وهيهات داء الحب كان قديما

فالحب قديم وليس محدثاً، وهو مقترن ـ في نفس الشريف الرضي ـ بالأسى، يلتف وإياه التفاف المحيطات الداخلية للكرة الواحدة، التي تنطوي على مئات الكرات المتداخلة، التي لم يكن الحزن فيها (وهي طبقات النفس)

مجرد طلاء، بل هو شخوص جرثومي، وصبغة من الوجهين، الخارجي والباطني، فهل خلق اللّه نبلاء النفوس من خامة الحزن؟! إذا لم يكن الأمر هكذا، فلم كان كمد الشريف الرضي قديماً؟ وَلِمَ ذاك النزف، والنحيب، والصلب اليومي على رمح الشوق؟

في قصيدة غزل واحدة، تقدست روحه، تنتشر المفردات المأساوية التي تخبرك بعذابات المتعذب: الألم، الجوى، المصدوع، الوقوع، الظمأ، المنع، القيظ، التجرع، الغصص، الملام، التقريع، البكاء، الدجى، الخضوع، التوديع، الفراق، الهون، اللسع، الصدود، الكمد.. وها هو المثال:

يا صاحب القلب الصحيح أما اشتفى ... ألم الجوى من قلبي المصدوعِ
أأسأت بالمشتاق حين ملكته ... وجزيت فرط نزاعه بنزوعِ
هيهات لا تتكلَّفنَّ لي الهوى ... فضح التطبُّع شيمة المطبوعِ
كم قد نصبت لك الحبائل طامعاً ... فنجوت بعد تعرُّضٍ لوقوعِ
وتركتني ظمآن أشرب غلتي ... أسفاً على ذاك اللمى الممنوع
قلبي وطرفي منك هذا في حمى ... قيظٍ وهذا في رياض ربيعِ
كم ليلةٍ جرَّعته في طولها ... غصص الملام ومؤلم التقريع
أبكي ويبسم والدجى ما بيننا ... حتى أضاء بثغره ودموعي
تفلي أنامله التراب تعلُّلاً ... وأناملي في سنيَ المقروعِ
قمرٌ إذا استخجلته بعتابه ... لبس الغروب ولم يعد لطلوعِ
لو حيث يستمع السرار وقفتما ... لعجبتما من عزِّه وخضوعي
أبغي هواه بشافع من غيره ... شري الهوى ما نلته بشفيعِ
ما كان إلا قبلة التسليم أر ... دفها الفراق بضمَّة التوديعِ
كمدي قديمٌ في هواك وإنَّما ... تاريخ وصلك كان مذ أسبوع
أهونْ عليك إذا امتلأت من الكرى ... أني أبيت بليلة الملسوعِ
قد كنت أجزيك الصدود بمثله ... لو أن قلبك كان بين ضلوعي

ومن مفعول (ذكرى الذكرى)، كان الشريف الرضي ينظر إلى الآثار والأمكنة بجدلية الرغبة والإشفاق، الرغبة في أن يرى الطلول، والإشفاق على نفسه من الأسى، فهو مسوق بدعوة المرور على آثار الأحباب، وحذر ـ في الوقت نفسه ـ من المرور عليها، إنَّه مقسوم بين نداءين متعارضين، هما نداءا القلب، الأبديان، ولا خلاص له من ضغطها إلا بالشهقة التي يسجد لها البكاء، وكل حزن:

أمن ذكر دارٍ بالمصلَّى إلى منىً ... تعاد كما عيد السليمُ المؤرَّقُ
حنيناً إليها والتواءً من الجوى ... كأنَّكِ في الحيِّ الولودُ المطرِّقُ
أاللّه أني إن مررت بأرضِهَا ... فؤادي مأسورٌ ودمعيَ مطلقُ
أكرُّ إليها الطرفَ ثم أردُّه ... بإنسان عيني في صرى الدمع يغرقُ
هواي يمانٍ كيف لا كيف نلتقي ... وركبيَ منقاد القرينة معرقُ
فواهاً من الربع الذي غيَّر البلى ... وآها على القوم الذين تفرَّقوا
أصون تراب الأرض كانوا حلولها ... وأحذر من مرِّي عليها وأشفقُ
ولم يبقَ عندي للهوى غير أنني ... إذا الركب مرُّوا بي على الدار أشهقُ

وغير الإشتياق الباكي، كان اشتياق (القرب)، الذي كان للشريف الرضي فيه سفرات يدور فيها حول نفسه، وحول محبوبه، من بعد، مثل دوران الأرض حول الشمس، ويحرص الشاعر العاشق على المسافة بينه وبين المحبوب حينما تدنو الخيام من الخيام، ويلج القلب بلغة شوق (أهل القرب):

وأبرحُ ما يكون الشوق يوماً ... إذا دنت الخيام من الخيام

كما قال أحد المتصوفة.

وكما سنرى ـ فيما بعد ـ ان للشريف الرضي أسبابه الواقعية لاختيار الإبتعاد (على مقربة من الحبيب)، إضافة إلى سمة العشاق الروحية في ذلك،

وهي سمة الإبقاء على نار الإشتياق في صهاريج الجسد، والنظر إلى المحبوب بعين القلب، لا بعين التحسس المتواصل، تقديساً للجميل، وترويضاً للذات على سبيل الإفناء من أجل المثال.

وما بين الإشتياق الباكي، والإشتياق الدفين، المكتمل بذاته، أخذت جدلية الحب بعدها الثالث، المتمازج بالبعدين الآخرين: بُعْد (القرب)، وبُعْد (البعد)، وهو بعد الترحل بين القرب والبعد، فكل حاضر ينأى عنه، وكل قريب مبتعد لا محالة، فتعظم مصيبة القلب، وإذا بالحب الذي كان أمل المقهور في دحر الإغتراب والقهر، والإنفصال، والدخول في الوحدة، يصبح اغتراباً، وانفصالاً، وانفصاماً، وبعضاً ينوح على بعض!

وظلت (الآهة) زفير القلب المتسائل:

أين الوجوه أُحبُّها ... وأودُّ لو أني فداها
أمسي لها متفقداً ... في العائدين ولا أراها
واهاً ولولا أن يلو ... م اللائمون لقلت آها

لكن ماذا تستطيع الأمكنة أن تفعل للقلب المدمَّى؟ وماذا تستطيع اللقاءات المتواترة، أو العابرة، في القرب، أو في البعد، أن توفر لنفس متسامية في مذهب الحب؟ لا شيء، لأن مذهب الحب الذي اعتنقته روح الشريف الرضي كان يأخذ زيته ووقوده من (الجوى)، والعذاب الطويل، فقال:

علق القلب من أطال عذابي ... ورواحي على الجوى وغدوِّي
وافترقنا في مذهب الحب شتى ... بين تقصيره وبين غلوِّي
كان عندي أن الحبيب شقيقي ... في التصافي فكان عين عدوِّي
ساءني مذ نأيت نسيان ذكري ... فاذكروني ولو ذكرتُ بسوِّ

الحب الشقي

يوفر الحب للمحبين سعادة نادرة، تقلل - عادة - من تأثير الآلام التي يعانون منها أشد المعاناة. وفي أغلب فصول الحب ومراحله يرتبط الألم بمسرات العشق، وتبادل الهناءة. ولم تذكر كتب تاريخ الحب، أن العشاق ذموا الهوى بسبب متاعبه وعذاباته الكثيرة. بل، وبعكس ذلك، هي زاخرة بقصص استقبال الألم والتشوق إليه إذا كان في ذلك ذكر للمحبوب، أو تَقرب إليه. فقال أبو الشيص الخزاعي:

وقف الهوى بي حيث أنتِ فليس لي ... متأخَّرٌ عنه ولا متقدِّمُ
وأهنتني فأهنتُ نفسي جاهداً ... ما من يهون عليك ممن يكرمُ
أشبهتِ أعدائي فصرتُ أحبُّهم ... إذ كان حظي منك حظي منهمُ
أجد الملامة في هواكِ لذيذةً ... حبّاً لذكرك فليلمني اللُّوَّمُ

وقال ابن الدمينة:

لئن ساءني في أن نلتني بمساءةٍ ... فقد سرَّني أني خطرتُ ببالِكِ

ويتداخل الألم في الحب تداخل الماء في النبتة، والدم في نسيج الكائن الحيواني الحي، فلم يعرف أحد حباً بلا عذاب، وليس ذلك عن (مازوكية) في طبع المحب، ولكنه تسليم بالحب ورضا، فالحب ذروة المجاهدة، وصولاً إلى الوجد، وذروة المحو وصولاً إلى الإثبات، وذروة العبودة وصولاً إلى الحرية، وما أن يصل إلى مرتبة الشوق حتى تصبح الآلام فرائض الروح والجسد، من سقم وضنىً وهم وحسرة وتسهيد، وفي ذلك قال (أعرابي) موجزاً أحسن إيجاز:

ألا ما الهوى والحب بالشيء هكذا ... يدلُّ به طوع اللسان فيوصفُ
ولكنه شيءٌ قضى اللَّهُ أنَّه ... هو الموت أو شيءٌ من الموت أعنفُ

فـأوَّلـه سـقـمٌ وآخـره ضـنىً وأوسـطه شـوقٌ يـشفُّ ويـتلفُ
وروعٌ وتسهـيـدٌ وهمٌّ وحـسـرةٌ ووجـدٌ على وجـدٍ يزيـد ويضعفُ

ان استرواح العاب، واستحلاء الألم، أمر يـدخل في سعـادة العاشق، التي ينـالها، أو ينـال منها وطـراً، أو التي يؤمل نشـدانها، فيظل إليهـا تائقـاً، موعوداً.

ترى، ما مدى السعادة التي تحققت للشاعر الرضي في غرامياته المثيرة، وما مدى استطاعة روحه العاشقة قهر غربته المديدة ؟

إن جـواباً واحـداً يمكن أن يكـون مقنعـاً: في ملكـوت (العشق) ذهب الشريف الـرضي إلى (المنفى)، إذا مـا جـاز استخـدام ثنـائيـة المصـطلح الكاموي: (المنفي والملكوت)[١٢٤]، فقد كان النفي الذي عاناه أشد المعانـاة صورة متطرفة من صور الإغتراب الجميل، رغم قساوته.

ويتصـل ذلك بمشكـلات العشاق، التي تختلف حـدتها من عـاشق إلى آخر، تبعاً للمستويات الشخصية والإجتماعية والدينية والثقافية لكل عاشق.

ومرارة العشق ومكابداته الشديدة تعترض العشاق، كـل العشاق، من أناس عاديين، وبسطاء، إلى الشعـراء والفنانـين، فكيف يكون عشق عـاشق كبير هو سيد قوم، ونائب خليفة للمسلمين، ومدير مدرسة، وصاحب أسرة، وذو قضية سياسية كبرى ؟

كان ذلك يعني، أن مكابدات ومشاق الحب، كانت شديدة الـوحشة، فكان الشريف الرضي محمولاً بإرادته القوية، ومحاطاً بالمشكـلات التي كرست فيه روح المكابدة.

فكان يسير في أهم مـوسم هو مـوسم الحج، إلى غـرامه، وإلى صيـده بصراحة هائلة: «فالشريف كان رجلاً صريحاً في جميع ما يتناوله من الشؤون.

وأظهـر صفة من صفـات الشريـف هي بغض النفاق، ألم يتخـذ الحج مـوسم صيد وهو نائب عن خليفة المسلمين؟»[١٢٥].

إن مـوسم الحج الـذي يعتبر المهـرجـان الـديني الإسـلامي الأشمـل، والذي كان الشريف الرضي ممثلاً للخليفة فيه، كان مهرجان الفرز الكبـير في المراقبة. فكان الشاعر الرضي، بحكم وظيفته، ومكانتـه، وسمعته، مـراقباً، تلف آلاف الأحداق حول شخصه حبال النظر، فكان مكـوباً عليـه أن يكون عشقه جمعاً بين (التجلي) و(التخفي). التجلي، من حيث كونـه كشف الفاتن والمفتون بعوامل الهوى، فالمحب يخرج من محارة الجسد عـبر واسطة الحـواس متوجهاً إلى مفاتن المحبوب، فلا يستطيع الإثنان، المحب والمحبـوب في لحظة صدحة العشق أن يخفيا لهفة العين والشفة واليد، فلا المحب بقادر على البقاء في محارة الجسد، ولا المحبوبة قادرة على الإختفاء وراء الخيمة.

لكن حـركة الـوصل محـدودة العمر، إذ سرعـان ما يقـود العقـل لعبـة (التخفي) بعـد إسفار المحبـة. فيغض المحب متظاهـراً بـالـلامبـالاة والنـأي الجسدي، وتطرق المحبوبة إطراقة الحياة والحذر والخوف.

لكن ذلـك لا يجري في زاويـة شـارع، أو بقعـة في حي، أو في بـاحـة مـدرسـة، إنـه يجـري في وسط مسرح متـلاطم بـالأمـواج البشريـة، في زمن الحجيـج الأكبر، حيث كـل التخفيات مـرصودة أيضـاً كأنها جـزء من مشهد الغرام، فكان لزاماً على المتحجبين، أن يزيدوا الحجاب، والاستسرار، فتصبح قصة الحب قاسية التمرين، عنيدة المحاولة، وتمزقـاً بين التـوق والصبر، بـين الحاجة والرضا، بين انتساب القلب وتهربه الظاهري من الانتساب.

وأكبر من مأساة العشق التي تجري على مسرح الرصد والترصـد، والقيل والقال، إن الآمال محلوجة سلفاً، فقـد حُكم على الأمـاني أن تكون وعـوداً، من يدري، أيجود بها الزمن، أم أنها تغادر مغادرة الـرمال التي تسـوقها ريـاح

الجزيرة الضارية إلى اللانهاية؟! فسرعان ما ينتهي أمد موسم الحج، وتذهب المحبوبة إلى موطن الأهل، أو قد تهاجر إلى المواطن المجهولة، ويظل الشاعر ينزف دم الذكرى، ويحصد مرارة التقول والشائعات.

وقد يركب فرسه، أو ناقته، متجهاً إلى الجهات العديدة، وراء بارقة أمل، أو إشارة، أو إيماءة من المحبوبة، تفيده في تحديد مكان اقامتها، فيهرب أمامه المكان، وتصبح الأرض مثل بالوعة أبدية لا حدود لسعة فوهتها، فيعود إلى (الزمن) منتظراً موسماً قادماً من مواسم الحج، لكن الزمان هو سيد اللعبة، فهو الذي علّم الأرض استعارة (اللانهائية) وضمّها إلى نهائيتها المنغلقة على نفسها. وعلى هذه الأرض - الكرة، أين النهائي وأين اللانهائي؟ أوليس كل شيءٍ يدور بين البدء والمعاد، في التطواف الطلسمي الرهيب؟

وسار الشاعر الشريف الرضي يحصي دروب الأرض، ودروب (التبانة) ومسرى الكواكب، ملبياً ارادة القلب، ويا لها من ارادة، تلك ارادة القلب! ارادة عجيبة، مدهشة، تجعل المشتاق قمة في القوة، وكذلك قمة في المغلوبية! فكل ذو شوق مغلوب، وإن كان متفجراً بالقوة الغالبة. هذا هو قانون العشق الذي لا يخطىء. فكانت مشية الشريف الرضي، تقحماً وليست مماشاة، فكان مثلما قال أحد المتصوفة:

ثم قطعت الليلَ في مهمهٍ ... لا أسداً أخشى ولا ذيبا
يغلبني شوقي فأطوي السرىٰ ... ولم يزل ذو الشوق مغلوبا

ولم تكن قوة الارادة ماثلة في جرأة المكاشفة، وتبادل الحب، فقط، فقد كان هناك جانب كبير من جوانب شخصية الشريف الرضي، ينم عن قوة الارادة، وصلابتها، ذلك هو جانب (التستر)، الذي كان أكبر من (التخفي) الاضطراري، التستر الذي هو مظهر الاستمرار، حيث يغدو فصل الأسرار فصل النفس الذي تأنس به.

إن التستر هو ملمح مميز من ملامح شخصية الشريف الرضي على شدة ما تنطوي عليه شاعريته من انتهـاك للصمت الكبير بعبـارة الشعر، إنـه تستر العفة والاستقامة.

وفي متقـابـلات الثنـائيـة المـريـرة، كـان عشقـه آليـة ضـوئيـة تـومض وتنـطفيء، تقـترب وتبتعـد، وعـلى نـار الجـوى كـان يحـرق فؤاده، والحبيب قريب، فكيف إذا ما تناءى؟! وهكذا ارتكز عشق الشريف الرضي على اندفاعة الشوق، التي كان يسلهبا قوتها، ويردهـا على عقبهـا أعراض المتسـتر، فتنثال الذكريات فيقول:

يقـرُّ بعيني أن أرى لـك منـزلاً بنعـمان يـزكـو تـربـه ويـطيبُ
وأرضـاً بنـوّار الأقـاحي صقيلة تـردَّد فـيهـا شـمـألٌ وجنـوبُ
وأيُّ حبيبٍ غيَّب النـأي شخصه وحـال زمـانٌ دونـه وخـطوبُ
تـطاولت الأعـلام بيني وبينـه وأصبـح نائي الـدار وهو قـريبُ
لكِ الله من مطلولة القـلب بالهوى قتيلة شـوقٍ والحبيب غـريبُ
أقـلُّ سـلامي إن رأيتـك خيفـةً وأُعـرض كيـما لا يقـال مـريبُ
وأُطـرق والعينان يـومض لحظهـا اليـك ومـا بـين الضلوع وجيبُ

يقـولـون مشغـوف الفؤاد مـروَّعٌ ومشغـوفـةٌ تـدعـو بـه فيجيبُ
ومـا علمـوا أنـا إلى غـير ريبـةٍ يقـاء الليـالي نغتـدي ونـؤوبُ
عفـافيَ من دون التقيَّـة زاجـرٌ وصـونكِ من دون الـرقيب رقيبُ

عشقت ومـا لي يعلم الله حـاجـة سوى نظري والعـاشقون ضروبُ
ومـا لي يـا لميـاء بـالشعـر طـائـلٌ سـوى أن أشعاري عليـك نسيبُ
أُحبُّـكِ حبَّـاً لـو جزيتِ ببعضـه أطـاعـكِ مني قـائـدُ وجنـيبُ
وفي القلب داءٌ في يـديـك دواؤه ألا ربَّ داءٍ لا يـراه طـبـيـبُ

إن عفة الشريف الرضي، هي عفة رجل اختار التحريم اختيـار المؤمن الثـابت، فلم يصل إلا إلى التسليم بـرغبـة اللثم، في تقليـد شعـري، ورغم

التأوهات التي انشق عنا صدره بين (اللقاء) و(الفراق) فإن أقصى ما تسعفه به حكمة الزمن، هو لثم القرينة، فكأنه في مذهبه العشقي يرى الجمال في تناسخ دائم، أو في حلولية متوزعة بين الفتيات والغزلان، فقال في واحدة من حجازياته وهو يذكر أيامه بمنىً:

أُحبُّك ما أقام منىً وجمعٌ ... وما أرسى بمكةٍ أخشباها
وما رفع الحجيج إلى المصلَّى ... يجرُّون المطيَّ على وجاها
وما نحروا بخيف منىً وكبُّوا ... على الأذقان مشعرة ذراها
نظراتك نظرةً بالخيف كانت ... جلاء العين مني بل قذاها
ولم يكُ غير موقفنا فطارت ... بكلِّ قبيلة منا نواها
فواهاً كيف تجمعنا الليالي ... وآهاً من تفرُّقنا وآها
فأُقسم بالوقوف على ألالٍ ... ومن شهد الجمار ومن رماها
وأركان العتيق وبانييها ... وزمزم والمقام ومن سقاها
لأنتِ النفس خالصة فإن لم ... تكونيها فأنتِ إذن مناها
نظرتُ ببطن مكة أُمَّ خشفٍ ... تبغمُ وهي ناشدةٌ طلاها
وأعجبني ملامح منك فيها ... فقلت أخا القرينة أم تُراها
فلولا أنني رجلٌ حرامٌ ... ضممت قرونها ولثمتُ فاها

إن العفة رفعت الشريف الرضي الزاهد إلى مكانة الرجل المحرم لا في مناسبات (الحرام) وحدها، بل في جميع عشقياته التي سبَّح فيها للجمال مستنبطاً منه الأزلية الالهية وأناشيد الشوق الكونية، وكيف لا وهو القائل:

«أنا مولىً لشهوتي ... وسوايَ عبد لها»

ويلعب (الرقيب) الأخلاقي، الذي لم يكن إلا «ضمير» الشريف الرضي، دوراً حاسماً في تقرير شكل العلاقة المتبادلة مع المحبوب. والتي تحتويها - أصلاً وابتداءً - روحية جمالية مفرطة التنافث، فالصلاة في محراب

الجمال عبادة وقربى إلى الخلاق الجليل، خالق الكائنات الجميلة، وإن الجمال الأزلي الذي طالما خاطبته (رابعة العدوية) (الإله) قائلة: «لا تحرمني يا إلهي من جمالك الأزلي» متجسد في كائناته المخلوقة، وكان الشريف الرضي يرى جمال الجميل فيستعذبه، ويتعذب به، ولم يكن حبه إلا كرامة النفس المطمئنة، والمنزَّهة عن الشر، والكراهية، والتفاهة، إنها طافحة بالحب إلى آخر حدود طاقة النفس والجسد، فامتلأت وفاضت بالحب والكرامة والنزاهة، وفي ذلك مصداقية استقراء الشاعر الذي قال عن المحبين والحب:

فللحبِّ أقوامٌ كرامٌ نفوسهم ... منزَّهةٌ عما سوى الحبِّ يا خلِّ

لكن: هل يفهم الرقيب الخارجي، المراقب الأشر، الجاسوس، والداسوس، والملفق، والفاسق، والمنافق، شرف الحب، وعظمة العشق، وقداسة العلاقة؟

كان الشريف الرضي، بدافع رقيبه الداخلي يتعفف، وكان بدافع عين الرقيب الخارجي المتلصص، يختار التجنب والصدود، رغم اللوعة، فكان يقول:

ألا أيها الركب اليمانون عهدكم ... على ما أرى بالأبرقين قريبُ
وإن غزالاً جزتمُ بكناسه ... عليّ النأي عندي والمطال حبيبُ
ولما التقينا دلَّ قلبي على الجوى ... دليلان حسنٌ في العيون وطيبُ
ولي نظرةٌ لا تملك العين اختها ... مخافة يثنوها عليَّ رقيبُ
وهل ينفعني اليومَ دعوى براءةٍ ... لقلبي ولحظي يا أُميم مريبُ

وما يراه جمهور الوشاة، والمنافقين، والصغار، من معايب في الكبار السامقين، المعاميد في العشق والحكمة والحياة، يتضخم، لأن الشخص الكبير بعقله، وشجاعته، وكرمه، حيث يكون مرموقاً، فإنه يكون محط افتراء المفترين وتشويه المشوهين، فيكثر الاختلاق، وتتناوشه سهام المتعرض، فيلجأ

الشاعر إلى سلاحه، وهو القصيدة، فيوجه الهجو إلى من ينتقص منه، أما السياسي فيلجأ إلى سلاح الحكمة، وتختلف الأسلحة عند الشعراء، والسياسيين، والحكماء، والفرسان، غير أنها تتنوع وتتلازم عند الشريف الرضي، لأنه الشاعر، والسياسي، والحكيم، والفارس، فقال حكيماً:

نزل المسيل وبات يشكو سيله ... إلا علوت فبتَّ غير مراقبِ
جمع المثالب ثم جاء تعرُّضاً ... بالمخزيات يدقُّ باب الثالبِ
وإذا اجتمعت على معايبَ جمَّةٍ ... فتنحَّ جهدك عن طريق العايبِ

أو يكيل الصاع صاعين بالحكمة نفسها، ومن مقامه الرفيع قائلاً:

وإن مقام مثلي في الأعادي ... مقام البدر تنبحه الكلابُ
رموني بالعيوب ملفَّقاتٍ ... وقد علموا بأني لا أُعابُ
وأني لا تدنِّسني المخازي ... وأني لا يروِّعني السبابُ
ولما لم يلاقوا فيَّ عيباً ... كسوني من عيوبهم وعابوا

وكذلك:

وجاهلٍ نال من عرضي بلا سبب ... أمسكتُ عنه بلا عيٍّ ولا حصرِ
حمته عني المخازي أن اعاقبه ... كذاك تحمى لحوم الذود بالدبرِ

وكان إذا انفعل فيه روح الشاعر شديد الهجاء، قوي التعرض، يهجم هجمة الفارس، الأَنوف، المتعالي على الأردياء، كقوله:

لعلَّ الدهر أمضى منك غربا ... وأقوى في الامور يداً وقلبا
ومقلته إذا لحظت حسامي ... تغضُّ مهابةً وتفيض رعبا
فكيف وأنت أعمى عن مقالي ... ولو عاينته لرأيت شهبا
عذرتك أنت أردى الناس أصلاً ... وأخبث منصباً وأذلُّ جنبا

وأنــت أقــلُّ في عــيـــنيَّ مـن أن أروعـك أو أشنَّ عليـك حــربـا
أأعجب من خصامك لي وجدِّي رسـول الله يـوسـع منـك سبًّـا
ومن رجم السـماء فـلا عجيبٌ يقـال حثـا بـوجـه البـدر تـربـا
فـإنَّك إن هجـوتَ هجـوتَ ليثاً وإني هـجـوتُ هجـوتُ كـلبـا

الشيب: ذلك الضيف غير المحتشم!

الشيب؟ قاتل الله الشيب! مـا أبغضه عـلى النفس الفنانـة المـرهفـة التي امتهنت لذة العلاقة في التواصل مع الجمالات التي تولد في كل الـ (هنـا) والـ (هناك). في الزهور التي تولد، في المياه التي تنبثق... في الثمـار التي تتدلى من الأغصـان... في أوراق الأشجار الخضراء... في إطـلالـة القمـر.. في تعـريسة الشمس، في الغنـاء الشجي، في كل فتن الجـمال، ومـواسم الحب، وكرنفالات الفرح.. ما أبغض الشيب على النفس المولهـة بالجـمال، والمترعـة بالحب، إلى حد تجاوز الذات، والذوبان في المحبوب.

وفي الوجه الأنثـوي الذي يحكي قصـة الخلق، والرمـز الأبدي للولادة والعـطاء السخي، والتوحـد، تخلدت جميع صـور الجمال، ومـلامـح الفتنـة، وتشوقات الإحساس.

فمن يفتقد جمال الطبيعة، فإنه يعثر عليه في جمال وجه المحبـوب، ومن يُـرِد اكتشاف مجـاهيل نفسـه الطاهـرة، فإنـه يعثر (عليهـا) على صفحـة وجه المحبـوب. فعلى الـوجوه الجميلة إضـمامات الـورود والأزهار، وكـل النـماذج البديعة في الطبيعة والكـون، إنها تحيا في الجـمال بعلانيـة الإحتفال، والتعبـير بالدلالة والرمز وسر الرونق.

وحين لا يعرف المحبوب أسرار جماله، مستسلماً إلى نعاس اللامعرفـة، وحدر اللامبالاة، والكسل الـطريف الذي يـزيد الجـمال جمالاً، فـإن الجمالي،

الفارس المجلّي في ميدان الحب، وهو ألف ألف ميدان، يكتشف بعينيه كنوز الجمال النائم، فيوقظه بهزَّة الأكتاف، موجداً له اعتباره.

إن الجمالي يرى، ويتفحص، لكنه آكبر من ذلك مكتشف عظيم. يرى (الماس) تحت الفحم، و (الذهب) تحت التراب، والضوء وراء العتمة. . . إنه يقرأ أسرار الوجه، ويفك ألغازه الحروفية، فيحرر وجه المحبوب الجاهل بنعمة جماله، من الغفلة والبلادة، واللاعلم، ويقول له: ها هو كوكبك السماوي. . هناك نجمك الذي يرقبك، وأنت غشيم لا تدري!

ومن يرى السماء جيداً تنفك عنه عقدة البلادة!

لو كان الجمالي مجرد مراقب، يتذوق الفتنة، لكان الأمر بسيطاً جداً، ولما كانت للآلام في دنيا العشق مذاهب. لكن الجمالي بحار مغامر، يطوف في عالم العيون بحثاً عن المقلة. إنه يخدم أنشودة قلبه، يتحسس الجمال، من قرب ومن بعد، فهو (اللامنتمي المنتمي): اللامنتمي بجولاته الكبرى على خريطة الأرض، أرض الله التي لا يرثها إلَّا الصالحون من عباده. . وهو المنتمي إلى الحب، والحق، واللطف. والمسرة، وإطلاق هوى النفس على هدى «إلَّا ما رحم ربِّي»(١٢٦)، الجمالي هو البحار والسفينة والبحر، إنه يترقب، ويراقب، ويبحث، ويغامر، وراء الولادات الجديدة، والإبتسامات العذبة لمنبع الجمال. . .

ويترعرع الجمال، ويتسع، وينتعش في شراكة الناس الراضين المسرورين، تحت خيمة الحق، الذي هو الله. فالجمال هو سر الله المتجلِّي، في البشر السعداء، والحق هو الرعاية، والهداية، والمآب.

والحق هو ضمانة الجمال، والعدل، والخير، والصداقة، هو ضمانة الضحك الفرح، لا «الضحك كالبكا»، الضحك السعيد الذي بدونه تكون الحياة مثل الموت، أو أشد من ذلك ظلاماً.

ومحنة الجمالي المغامر أنه محاصر بأعداء الحب، حب الله وحب البشر،

وحب الجمال، وأحكمت وقائع الدهور تشخيصها: (المحبوب) ضعيف، و(المحب)ملعون، و (العلاقة) جناية، فوا أسفاه على المنكسرة قلوبهم!

وفي انكسار القلب، وأساه، وفي الجوى الحارق، وفي أرق الحب، وفي عناء الإكتشاف بعد المخاطرة، ثم ضياع (أطلانطس العشق)[١٢٧] تحت كتل مياه المحيطات الهائلة، بعد أن حط العاشق قلبه على حافة البداية، في هذا الفقدان، والتلف، يشتعل الرأس شيباً.

والشيب شيبان، شيب الزمن (من طول العمر)، وشيب المعاناة الإنسانية الشديدة، التي لا يعرفها إلَّا الذين تفجرت قلوبهم بالحب والشهامة والعطف والإكرام، معاناة الأباة الأحرار.

وأوجز أحد الشعراء في ذلك قائلاً:

وما شاب رأسي من سنين تعدَّدتْ ولكنَّ رأسي شيَّبته المصائبُ

وكم تحدث الشعراء الكبار ذوو النفوس العظيمة عن الشيب، بالنحيب الذي تفضحه الكلمات، فجاءت قصائدهم أحرَّ التعازي، ورموا كلمات اللعن بوجه بياض الشعر، فبدا أسود من الظلمة في عين (المتنبي) عندما قال:

ضيفٌ ألمَّ برأسي غير محتشمٍ والسيف أحسنُ فعلاً منه باللِّمَمِ
إبْعدْ بعدتَ بياضاً لا بياض له لأنت أسود في عيني من الظُّلَمِ

وكذلك في قول (أبي تمام):

له منظرٌ في العين أبيضُ ناصعٌ ولكنَّه في القلب أسودُ أسفعُ

وكان البحتري يودُّ لو أن السيف أعمل في رأسه، ولا بياض الشيب فقال:

ودِدتُ بياضَ السيف يوم لقينني مكان بياضِ الشيب حلَّ بمفرقي

ترى، ما حال الشريف الرضي، وهـو العاشق الكبـير، بالفتـوة كلها، وبـالشرف الجليل، وبنبـاهة السيـادة، وبالعـز الإلهي الذي ذخـرته السـلالة النبـويـة المكـرمـة، المؤصلة، رغم صـلافـة المضلِّين، المضللين، المتكـبرين، الفاسقين، ناسجي ملحمة الزور والبهتان؟

لقد كان من أنـاسٍ تحتفظ صدورهم بعلوم كثـيرة، مثلما تنوء بـالبلوى بصمت، فكـأن العلم والشقاء، قـدِّر لهما، أن يكـونا في كفـةٍ واحدة. وكـان المركب المأساوي للشاعر الرضي تروية العذاب، ففي كل حين كانت تصدمه الصدمة، وتفجـأه المفاجـأة، وهو كـائن إنساني أصيـل لا يستطيـع التواري، فكان أن ظل سائراً بين الناس والأمكنة بجلباب الأحزان.

لقد تجرَّع، منذ الصبا، غيظاً كثيراً، فَلِمَ لا يأتيه الشيب مبكِّراً؟

والشيب يهجم النفوس الرقيقـة، الطاهـرة، المصفاة بـالمعرفـة والحب، عنـد انكسار واحـد، فكيف إذا تتـالت الإنكسـارات، وكـثرت الإسـاءات، وتفاقم الغدر حتى أصبح شريعـة؟ إن الشيب، لا يتوانى عن الهجـوم، فهجمته غارة، وأية غارة... لا تعرف التريُّث أبداً، فكأنها تدخل مع بيـاض النفس الجليلة، في سباق لا مثيل له.

النفس البيضـاء تـريـد إكليـل الشعـر الأسـود، لكن تحسُّس الضمـير المحبط، يقضي على سواد الشعر، من الجذر، وهذا هو فعـل الدم المحـترق، بشواء القلب.

ويـذهب سواد الشعـر الفاحم، الـزاهي، ذهابـاً أبديـاً، مثلما تـذهب الأيام، فلات رجوع!

وكـما قـال (المتنبي) عن ذلـك الضيف غـير المحتشم: الشيب، التهم البيـاض شعر رأس الشـاعر التهـاماً، مبكـراً، وسريعاً، فكـانت للشاعـر مع

الشيب حوارات، وليس مجرد أبيات شعر.

فحين كان عمره ٢٣ سنة رأى في شعر رأسه طاقات بياض، فقال:

عجلت يا شيب على مفرقي ... وأيُّ عذرٍ لك أن تعجلا
وكيف أقدمت على عارضٍ ... ماآستغرق الشعر ولا آستكملا
كنت أرى العشرين لي جُنَّةً ... من طارق الشيب إذا أقبلا
فالآن سيان آبن ام الصِّبا ... ومن تسدَّى العمر الأطوالا
يا زائراً ما جاء حتى مضى ... وعارضاً ما غام حتى آنجلى
وما رأى الراؤون من قبلها ... زرعاً ذوى من قبل أن يبقلا
ليت بياضاً جاءني آخراً ... فدى بياضٍ كان لي أوَّلا
وليت صبحاً ساءني ضوؤه ... زال وأبقى ليله الأليلا
يا ذابلاً صوَّح فينانه ... قد آن للذابل أن يُخْتلى(١٢٨)
حطَّ برأسي يقِقاً أبيضاً ... كأنَّما حطَّ به منصلا(١٢٩)
هذا ولم أعدُ بحال الصبا ... فكيف من جاوز أو أوغلا
من خوفه كنت أهاب السُّرى ... شُحَّاً على وجهيَ أن يبذلا
فليتني كنت تسربلته ... في طلب العزِّ ونيل العلا
قالوا دع القاعد يزري به ... من قطع الليل وجاب الفلا
قد كان شعري ربما يدَّعي ... نزوله بي قبل أن ينزلا
فالآن يحميني ببيضائه ... أن أكذب القول وأن أبطلا
قل لعذولي اليوم نم صامتاً ... فقد كفاني الشيب أن أعذلا
طبتُ به نفساً ومن لم يجد ... إلاَّ الردى أذعن واستقبلا
لم يلقَ من دوني له مصرفاً ... ولم أجد من دونه موئلا(١٣٠)

ويخضع الشاعر نفسه إلى مراقبة شديدة، فهو لا يسمع أنات قلبه فقط، وإنما يشهد أي تغيير في هيئته، في معالمه.. في لون شعر رأسه، وقد رأى وهو ابن العشرين الصقيع الوافد على رأسه.. ذلك البرد القاسي الذي

لا يتناسب مع غليان نفس الشاعر وحرارتها المضطرمة ذلك العدو الأخطر من كل عدو والذي قال فيه:

ما لقائي من عدوّي كلقائي من مشيب
موقدٌ ناراً أضاءت فوق فوديَّ عيوبي
وبياضٌ هو عند الْـ ـبيض من شرِّ ذنوبي

إن عوامل الشيب المبكر قائمة في رقة الذات الناصعة التي كانت مطوقة بالاجحاف، والظلم، والغدر، أوليس، أسرع الأشياء إنكساراً، المصباح المنير؟!

وفي تعامله مع الزمن كان الشاعر يراقب سرعة إنقضاء الأوقات الهنيئة، لقد تخللت دماغه، ونفسه، فكرة الضياع، والتبدد، حيث كانت الحقوق تضيع، والفرص تُهدر، والجُمالات تتباعد، فلا يتبقى إلَّا الحرمان وكبر النفس. وتمر السنوات مسرعة، كأن الشباب ومضة، وليس مرحلة كبيرة من العمر.

وما بين العشرين والثلاثين من العمر، يتملَّى نفسه، فإذا بغربان الليالي التي تنعق نعيقاً لا يتوقف، تُطير غراب رأسه(١٣١).

فتحل محطة الثلاثين من العمر، والشاعر قد تلفَّع رأسه بالشيب فكالمه وصفاً وعتاباً، وذمَّاً، وتحسُّراً، وأسى.

ويبلغ الإغتراب الزمني بالشاعر مبلغاً مأساويا فرأى (الثلاثين) عمر اللاعودة، حيث يضيع الصبا، مثلما ضاعت الآمال؛ (النخلات التي حنظلت) حين عبر عن ذلك قائلاً:

غرست غروساً كنت أرجو لحاقها وآمل يوماً أن تطيب جناتها
فإن أثمرت لي غير ما كنت آملاً فلا ذنب لي أن حنظلتْ نخلاتها

كم من الشعراء رأى في الثلاثين من العمر نهاية أجمل العمر؟ لقد قال الشريف الرضي ذلك:

قال لي عند ملتقى الركب عمرو قوّم العود بعدنا فآنصاتا
أين ذاك الصبا وأين التصابي سبقا الطالب المجدَّ وفاتا
من قضى عقبة الثلاثين يغدو راجعاً يطلب الصبا هيهاتا
لم تزل والمشيب غير قريب ناعياً للشباب حتى ماتا
كنت تبكي الأحياء فآستكثر اليو مَ من الدمع وآندب الأمواتا

ولا يخفي الشاعر الشريف الرضي همه وهو يراقب زحف الشيب المبكر، مثلما يلمس بنفسه عداء الأعداء وبعض ذوي القربى الذين حاربوا كفاحه في طلب العلى.

فكان أن حسب الشيب عدواً خطيراً جاءه من داخل كيانه الجسدي. فيسقط إحساسه الإغترابي بفعل تألمه من الشيب الغازي، على الزمن، الذي هو: «أب كل غريبةٍ!» فأنطقه الشيب:

قل لليالي قد ملكتِ فاسجحي ولغيركِ الخلقُ الكريم الأسجحُ(١٣٢)
من أيِّ خطبٍ من خطوبك أشتكي وعن أيِّ ذنبٍ من ذنوبك أصفحُ
إن أشكُ فعلك من فراق أحبَّتي فلسوء فعلكِ في عذاري أقبح
ضوءُ تشعشع في سواد ذوائبي لا أستضيء به ولا استصبحُ
بعت الشباب على مقةٍ له بيع الحليم بأنه لا يربحُ
لا تنكرنَّ من الزمان غريبةً إن الخطوب قليبها لا ينزحُ

وحينما تجاوز الثلاثين من العمر أخذ الشاعر يرثي شبابه، مشيراً إلى حيف الزمان:

وما زال الزمان يحيف حتى نزعتُ له على مضضٍ لباسي
نضى عني السواد بلا مرادي وأعطاني البياض بلا التماسي

أليس إلى الثلاثين آنتسابي ... ولم أبلغ إلى القلل الرواسي
فمن دلَّ المشيب على عذاري ... وما جرَّ الذبول على غراسي
سأبكي للشباب بشارداتٍ ... كصادرة السهام عن القياسِ (١٣٣)
فمن يكُ ناسياً عهداً فإني ... لعهدك يا شبابي غير ناسِ
وكنت عليك معْ طمعي جزوعاً ... فكيف يكون وجدي بعد ياسي
لضاع بكاء من يبكيك شجواً ... ضياع الدمع بالطلل الطماس

ويصبح الشيب مشكلة، وحديثاً شعرياً دائماً، يتداخل وموضوع المرأة حتى يشكل الطرفان (المرأة والشيب) ما يشبه الديالوج: في الحوار، والإستعارة، فتتفتق الجروح، وتختلط الإتهامات، ولا تنجو المرأة من تحميلها المسؤولية فـ: «دلُّ البيض أوَّل ما أشابا» بقول الشريف الرضي:

أرابكِ من مشيبي ما أرابا ... وما هذا البياض عليَّ عابا
لئن أبغضتِ مني شيب رأسي ... فإني مبغضٌ منكِ الشبابا
يذمُّ البيض من جزعٍ مشيبي ... ودلُّ البيض أوَّل ما أشابا

أهكذا فعلت المرأة بالعاشق؟!

إن موقع المرأة في أفكار الشريف الرضي وإحساساته عن الشيب، موقع شديد الإحراج، والأذى. فالمرأة تنظر بعين الناس، وتتحدث بلسان الناس الذين يرون أن الشيب علامة الشيخوخة، لكن ما يراه الناس ويذكرونه، يتجسَّم ويتضخَّم في نظر المرأة. فهي في عمر الصبا والجمال تعشق الصبا والجمال، وتزدري الشيخوخة، وكل ما هو دال على الشيخوخة، وهل أبلغ من الشيب دليلاً، وإن كان مخادعاً؟!

إن الشيب، هو - في رأيها - وقار الأب لا وقار الحبيب، إلاَّ إذا كان الشيب قد وخط شعر رأسها مثل الرجل الذي أدركه المشيب.

لم تكن للمرأة[١٣٤]، في البيئة العربية، حينذاك، ثقافة عقلية، بل هي ذات معرفة حسية مندمجة بتنفس الطبيعة، وتعاقب أشكال وصور الحياة فيها، فهي لا تملك غير الرثاء لمن علا رأسه الشيب، إلاَّ في حالات العشق الراسخ، الذي خبره الزمن. والمعرفة الحسية تزرع في الطبيعة الأنثوية شجيرة للطبع اللعوب، الذي لا يغادر المرأة، حتى ولو دخلت فيما بعد الثلاثين من العمر. وقد تفلح تجربة الأمومة في كبت ذلك الطبع، إلاَّ أنها لا تستطيع قهره إلاَّ بالدين أو بالفكر. وهو يتفلت في ضحكة راغبة، أو في حركة تدلع مفاجئة، وفي التسارر مع صاحبة أو صويحبة عن قصص وأخبار نسائية، بكل ما يحتمله ذلك من إسقاطات وإسقاطات معكوسة.

والشاعر الشريف الرضي، المدرك للأبعاد الواقعية للمعرفة الحسية للمرأة، وموقفها من الشيب، يفهم ما تعنيه عبارة أسف ترد على لسانها، أو نظرة تأسٍّ تشي بها عيناها. فالعبارة والنظرة تردانه إلى كوخ البرد القارس، إلى الإحساس بالإغتراب الزماني الذي يسحق الكائنات الحية في الموعد المحدد، إلى الشعور باللاعودة، بعد تصرم الشباب، شبابه التقليدي المحسوب بالسنوات، فكأنه يستعير حيسوبة عمره من نظرة إمرأة، أو من تعليق أخرى!

لكن شبابه الروحي الهائل، الذي يرفض لعبة الزمن، يرتدُّ به إلى نقطة أخرى، تشده إلى نفسه المتوحدة شدّاً، وتلمُّه لمّاً. تلك هي نقطة خوف الكبرياء من جرح صدود المرأة.

وكم هو محتاج. (كذلك كان!) إلى أن يلتم ككرة نار ضد الأفكار والآراءوالاحساسات المتقاطعة التي تذبح النفس ذبحاً لا يرقى إلى مستواه القتل. فحيث يرى الآخرون الشيب يجلل رأسه، يعلم تمام العلم أنه شاب، وما الشيب هذا إلاّ صبغة الخطوب والمآسي التي تجرعها جرعة جرعة، يوماً إثر يوم.

وهو إذ يقبل على مورد الحب بكل قوته الشبابية، الروحية والجسدية، وهو المجبول على العشق، فإنه يكبح نفسه بقوة كبريائه الروحية خوف الانجراح من ملاحظة انثوية حول بياض الذوائب، حول الشيب، الذي تكرس كمفهوم عن الكبر، وعن ضياع الشباب.

حتى وإن كان الشيب خطأ حلَّ برأس الفتى، إلّا أن دبيبه يسرع إسراعاً لا رادَّ له، حتى يصل إلى وثيقته الزمنية، مستمسك الكهولة والشيخوخة.

فماذا تستخلص الكبرياء من فائدة في فترة وجيزة هي فترة الضيافة اللازمنية للشيب أليست هي فترة التأويل، وسماع الملاحظات، والتعليقات المتأسية، والمتآسفة؟!

وتصد الكبرياء الشخصية على نفسها النوافذ، وتبالغ في الابتعاد لأن كرامة الطبع الأصيل تأبى قبول التجريح.

لقد هجم الشيب، ومشيئة الدنيا هي: الهوى للشباب، ودوام الهوى في ضمان الشباب، وكان هذا ما رآه الشريف الرضي وهو في الأرق الأشد:

دوام الهوى في ضمان الشباب ... وما الحبُّ إلّا زمان التصابي
أحين فشا الشيب في شعره ... وكتَّم أوضاحه بالخضابِ
تروعين أوقاته بالصدودِ ... وترمين أيامه بالسبابِ
تخطَّى المشيب إلى رأسه ... وقد كان أعلى قباب الشبابِ
كذاك الرياح إذا استلأمتْ ... تقصَّف أعلى الغصون الرطابِ

ويحتدم الصراع - داخل النفس - بين إرادة العشق، والدروس الذاتية الناشئة من تعذيب الشيب المبكر، وحقاً، إنه صراع مخيف.

فإرادة العشق هي طبيعة روحانية، ونفسية، وجسمية، خولته أن

يكون سيد العشاق، الذي تزوره الأشواق وتتخاطفه، كلما شكا محب ولهان، وهو إمام العشاق، وصاحب الطريقة، المقدَّم الذي يتبعه كل عـاشق ويشرب بقيته، ويردُّ على وروده، كما دلَّ على نفسه بقوله:

وإنّي لمـجلوبٌ ليَ الـشـوق كـلَّما تـنفَّس شـاكٍ أو تـألَّم ذو وجـدَ
تعـرَّض رسل الشوق والركب هاجدٌ فتـوقظني من بـين نـواحهم وحـدي
فـقـلت لأصـحـابي ألا تـتزافـروا رويـدكـم إن الهـوى داؤه يـعـدي
ومـا شرب العشـاق إلاّ بـقيَّـتي ولا وردوا في الحبِّ إلاّ على وردي

وكان هو الذي يعير دموعه للعشاق ليبكوا، كما قال:

وابكِ عني فطال مـا كنتُ من قْبـ ـلُ أعـير الـدمـوع للعشَّـاقِ

تـرى هـل تنـدحـر تلك الإرادة الـطبعيـة أمـام حضـور الضيف غـير المحتشم: الشيب؟ لا.. طبعاً. لأن العاشق الأصيل ينظر بنور قلبه، ويتحـرك بإرادة قلبه، ملتحماً بقلب الكون، وتيارات الحياة، ما بين المشرق والمغـرب، أليس هو الإنسان الذي ينطوي فيه العالم الأكبر؟ فَلِمَ لا تتحد عناصره بنظائرها عناصر الكون، مسـترجعة الـوحدة بـين الانسان والـطبيعة، بعـد القطيعـة، والانفصال؟!

لكن زفـير الشيب مكـثرة للتـلاوم، ومـدعـاة للتحسس المفـرط، ولأن الزمن كان ثقيلاً بخطوبه ومحنه، فقد بدت الأعوام الثلاثون كالشيخوخة، وما هي بكذلك! فقد تبتدىء الحياة الحقيقية لدى البعض في سن الثلاثين، أو في سن الأربعـين، ويختلف تصنيف الأعـمار لـدى الشعـوب، وبـين الأفـراد، اختلافاً مرتبطاً بتجارب الشعوب وتجارب الأفراد.

إنها تصـاريف الزمـان، إذن، وتباريـح الهوى التي جعلت التـوجع من الشيب في سن ما بعد الثلاثين كأنها نفث الشيخوخة ونثيثها الذي لا ينقطع.

فكان، بإزاء المرأة، واقعاً في طرفي التناقض، بين الهوى، والصدود عن الهوى، ما دام انطباعه بأن ما بعد الثلاثين هي مرحلة انقراض الشبيبة، فقال وقد حلق وفرته بمنىً ورأى فيها البياض المتزايد:

لا يبعدنَّ الله بُرد شبيبةٍ ... ألقيته بمنىً ورحتُ سليبا
شعرٌ صحبتُ به الشباب غرانقاً ... والعيش مخضرُّ الجناب رطيبا
بعد الثلاثين انقراض شبيبةٍ ... عجباً اميم لقد رأيت عجيباً
قد كان لي قططاً يزين لّمتي ... شروى السنان يزين الأنبوبا
فاليوم أطّلب الهوى متكلِّفاً ... حصراً وألقىٰ الغانيات مريبا
إمَّا بكيت على الشباب فإنه ... قد كان عهدي بالشباب قريبا
لو كان يرجع ميِّتٌ بتفجُّعٍ ... وجوىً شققتُ على الشباب جيوباً

وعبثاً حاول البرهنة على أن بياض الشعر أدق وأكثر وفاء من سواده الذي سرعان ما يفارق، أو بقوله إن السواد عمىً، والبياض بصر، فلا شافع له عند من ترى المشيب ذنباً لا يغتفر، ذلك ما ورد في رائيته:

من شافعي وذنوبي عندها الكبرُ ... إن المشيب لذنبٌ ليس يغتفرُ
راحت تريح عليك الهمَّ صاحية ... وعند قلبك من غيٍّ الهوى سكرُ
رأت بياضك مسودّاً مطالعه ... ما فيه للحبِّ عينٌ ولا أثرُ
وأيُّ ذنب للونٍ راق منظره ... إذا أراك خلاف الصبغة الأثرُ
وما عليك ونفسي فيك واحدةٌ ... إذا تلوَّن في ألوانه الشعَرُ
أنساك طولُ نهار الشيب آخره ... وكلُّ ليل شباب عيبه القصرُ
إن السوادَ على لذاته لعمىً ... كما البياض على علاّته بصرُ
البيض أوفى وأبقى لي مصاحبةً ... والسود مستوفزاتٌ للنوىٰ غُدُرُ

لقد هال الشريف الرضي نزوع شعر رأسه إلى البياض في باكر الأيام، وهاله أن الشيب وطأ هامته وهو في أوج الفتوَّة، فكانت له مع الشيب أحاديث الصباح، والمساء، والليل، وطالت المداخلة، لا مع نجيٍّ يبثّه

النجوىٰ، أو مع نديم يبادله أنخاب المسامرة، بل مع شقيٍّ أورثه أشد الحسرات.

لقد تغلغلت أحاديث المشيب في شعره، مع تغلغل البياض في شعر رأسه، ومع تغلغل المكائد من حوله، ضد نفسه العزيزة من قبل أذلاء النفوس، وصدق فيما قال:

يصل الذليل إلى العزيز بكيده والشمس تظلم من دخان الموقدِ

وحيث كانت المكائد تحيط به أنَّى ذهب، كان يقاوم الإلغاء بتأكيد ذاته، فكان يوقِّع على خطواته في الحياة، كمن يوثِّق سيرته دفعاً للغدر، وتصدياً لغربته المديدة، وما درى أن غربته بعد الموت أنكى من غربته في حياته، وها هو موضوع «قبره» رهن التساؤل والاختلاف، كأنه قبر مجهول! كذلك كان يوثق شعره بقلمه، خشية أن يضيع أو يحرّف، أو يشوَّه، ورغم ذلك ظل شعره طيَّ النسيان والاهمال والتجاهل، ولم ير النور إلا قريباً جداً في حساب زمن القسوة والجحود.

فكأن الاغتراب والغربة قدره في الحياة وفي المهات. لكن الضباب لا يطمس قرص الشمس!

كُتب في (١٠ محرم)
انتهى في (١ صفر) ١٤٠٦ هجرية - ١٩٨٥ ميلادية

(١) سورة «يس» الآية ٦٩.
(٢) سورة «الطور» الآية ٣٠.
(٣) سورة «الحاقة» الآية ٤١.
(٤) سورة «الشعراء» الآيات ٢٢٤، ٢٢٥، ٢٢٦، ٢٢٧.
(٥) سورة «الشعراء» من الآيات ٢٢٤ - ٢٢٧.
(٦) عبد اللطيف شرارة: معارك أدبية.
(٧) الديوان ص ٦٤٥، ٦٤٦.
(٨) الديوان: ص ٥٢٦.
(٩) ذخائر العقبى في مناقب ذوي القربى، للمحب الطبري. وقال: أخرجه أبو سعد والملا في سيرته.
(١٠) رواه مسلم في فضائل علي.
(١١) أحمد والبخاري والترمذي. عن حديث سعد بن أبي وقاص.
(*) عن سيد شباب أهل الجنة: الحسين بن علي بقلم: حسين محمد يوسف.
(١٢) العطبول: المرأة الفتية الجميلة.
(١٣) الذحول جمع ذحل وهو الثأر أو طلب المكافأة.
(١٤) الشريف الرضي - الديوان ص ٦٥٨ - ٦٦٠.
(١٥) ابن أبي الحديد: «شرح نهج البلاغة».
(١٦) زكي مبارك: «عبقرية الشريف الرضي».
(١٧) ابن أبي الحديد: «شرح نهج البلاغة».
(١٨) الشريف الرضي: الديوان ص ٢٣٦.
(١٩) الشريف الرضي: الديوان ص ٢٣٧.
(٢٠) الشريف الرضي: الديوان ص ٢٣٨.
(٢١) زكي مبارك: عبقرية الشريف الرضي.
(٢٢) زكي مبارك: عبقرية الشريف الرضي.
(٢٣) زكي مبارك: المصدر نفسه.
(٢٤) المصدر نفسه.
(٢٥) المصدر نفسه.
(٢٦) محمد جميل شلش: «الحماسة في شعر الشريف الرضي».
(٢٧) المصدر نفسه.
(٢٨) يتيمة الدهر للثعالبي - عن المصدر المذكور.
(٢٩) وفيات الأعيان (شمس الدين أحمد بن ابراهيم الشافعي) - عن المصدر (محمد جميل شلش).

(٣٠) اليتيمة (عن المصدر المار ذكره).
(٣١) د. عبد الستار السيد متولي: (أدب الزهد في العصر العباسي).
(٣٢) سورة «لقمان» آية ٣٣.
(٣٣) الشريف الرضي: الديوان ص ١٧٨.
(٣٤) البيقهي: حديث نبوي.
(٣٥) الشريف الرضي: الديوان ج ٢ ص ٦٥١ - ٦٥٤.
(٣٦) أبو العلاء المعري، لزوم ما لا يلزم.
(٣٧) المصدر نفسه.
(٣٨) المصدر نفسه.
(٣٩) د. عبد الستار السيد متولي: «أدب الزهد في العصر العباسي».
(٤٠)٩سورة يونس، الآية ٤.
(٤١) سورة مريم
(٤٢) سورة الأنبياء، الآية ١٠٤.
(٤٣) سورة الرحمن، الآية ٢٦.
(٤٤) سورة البروج، الآية ١٣.
(٤٥) الشريف الرضي: (الديوان ص ٨٢٠).
(٤٦ ـ ٤٩) د. زكي مبارك: عبقرية الشريف الرضي ج ٢.
(٥٠) المصدر نفسه.
(٥١) المصدر نفسه.
(٥٢) د. زكي مبارك: المصدر نفسه.
(٥٣) د. كامل مصطفى الشيبي: (الصلة بين التصوف والتشيع) من حلية الأولياء.
(٥٤) المصدر نفسه.
(٥٥ ـ ٥٨) د. كامل مصطفى الشيبي: المصدر نفسه (عن صفة الصفوة).
(٥٩) محمد جميل شلش: المصدر نفسه
(٦٠) المصدر نفسه.
(٦١) المصدر نفسه: عن (الكامل) و(مسكويه).
(٦٢) الشريف الرضي: الديوان ـ ص ٦٨، ٦٩.
(٦٣) الجنيب: الفرس.
(٦٤) الحوب: الأثم.
(٦٥) محمد جميل شلش: المصدر نفسه.
(٦٦) المصدر نفسه عن (البداية والنهاية).
(٦٧) المصدر نفسه.
(٦٨) المصدر نفسه.
(٦٩) الجمّ جمع أجمّ وهو الرجل بلا رمح والكبش بلا قرن، والقِرن بالكسر هو الكفوء في الشجاعة، والرَوْق بالفتح القرن، والجازي الأغن كناية عن الظبي.

(٧٠) الشريف الرضي: الديوان.
(٧١) المصدر نفسه.
(٧٢) الديوان.
(٧٣) د. زكي مبارك: عبقرية الشريف الرضي.
(*) لأهمية القصيدة ننشر غالبية مقاطعها إثباتاً لصواب الرأي المعروض، وحرصاً على الفائدة الذوقية المجتناة من قراءة أحسن القصائد.
(٧٤) الشطن بالتحريك: الحبل الطويل.
(٧٥) المصعب: الفحل.
(٧٦) لا لعاً له: عبارة قديمة تفيد الذم.
(٧٧) الفنيق: الفحل المكرم، والأذواد: جماعة الابل.
(٧٨) اعيجاز مصغر اعجاز، والتبيع: التابع، والهوادي جمع الهادي وهو العنق.
(٧٩) الحيا: المطر، والبراد: البارد.
(٨٠) الجدود: الحظوظ المكسوبة، أي أنه بنى مجده بيديه، عصامي.
(٨١) التنافث: التناجي.
(٨٢) متعرس: الذي ينزل بالليل (من هوامش د. مبارك والديوان).
(٨٣) الجنينة: مقبرة كانت في بغداد.
(٨٤) الأوشال جمع وَشَل بالتحريك: وهو الماء القليل يتحلَّب من صخرة أو جبل.
(٨٥) القضيب هنا: السيف (شرح مبارك).
(٨٦) محمد جميل شلش: المصدر الفائت ذكره.
(٨٧) رحض: غسل وطهر. العلج: العجمي الكافر (من بيت الشعر نفسه).
(٨٨) مضة: موجعة.
(٨٩) الزغف: الدرع اللينة الواسعة المحكمة، والميعة من ماع الفرس إذا جرى.
(٩٠) علي بن أبي طالب: (نهج البلاغة).
(٩١) الأكلة: الغيبة، والشعواء الغارة المتفرقة.
(٩٢) أراقم: جمع أرقم وهو أخبث الحيات وأطلبها للناس.
(٩٣) القرن: الكفوء في الشجاعة.
(٩٤) المرنَّق: المكدَّر.
(٩٥) الوأي: الوعد.
(٩٦) تماثلت: يقال تماثل العليل من علته، أقبل وقارب البرء.
(٩٧) العضب: السيف القاطع.
(٩٨) الروع: الفزع، وقد يأتي بمعنى الحرب.
(٩٩) جذيمة: هو الأبرش ملك الحيرة ونديماه مالك وعقيل ابنا فالج (الديوان: الهوامش).
(١٠٠) العاب: لغة في العيب.
(١٠١) صفرت: خلت، الوطاب: الأوعية.
(١٠٢) د. زكي مبارك: المصدر السابق.

(١٠٣) المصدر نفسه.
(١٠٤) أنهر الجرح: وسّعه. وأنضاه: أهزله.
(١٠٥) النِّقص بالكسر: المهزول من السير.
(١٠٦) ضحا: برز للشمس، والمفرق بفتح الراء وكسرها وسط الرأس وهو الذي يفرق منه الشعر.
(١٠٧) القوارص: الكلمات الجافية.
(١٠٨) المولِي: القريب. ورى القلب: كواه. والميسم: ما يكوى به.
(١٠٩) يشذِّب: ليقطع. والنحض: اللحم.
(١١٠) القبال: من النعل زمام بين الاصبع الوسطى والتي تليها.
(١١١) المخيلات: جمع مخيلة وهي من أخيلت السماء إذا تهيأت للمطر.
(١١٢) الشجيجان: مثنى شجيج وهو المجروح.
(١١٣) يرم: يسكت.
(١١٤) د. زكي مبارك: المصدر السابق.
(١١٥) تلخيص محمد جميل شلش، (الحماسة في شعر الرضي) ـ هامش الحلقة الثامنة (الماضية).
(١١٦) شهاب الدين بن أبي حجلة المغربي: «ديوان الصبابة على هامش تزيين الأسواق».
(١١٧) الشريف الرضي: «الديوان ـ ج ١».
(١١٨) د. عاطف جودة نصر: «الرمز الشعري عند المتصوفة».
(١١٩) د. عاطف جودة نصر: الرمز الشعري عند المتصوفة
(١٢٠) المصدر نفسه
(١٢١) بول تيليش: «الحب والقوة والعدالة» سلسلة النصوص الفلسفية. وبول تيليش فيلسوف ولاهوتي الماني المولد امريكي المواطنة (١٨٨٦ ـ ١٩٦٥) ترك المانيا النازية إلى الولايات المتحدة الامريكية عام ١٩٣٣ عمل استاذا للفلسفة واللاهوت وفلسفة الدين بهارفارد وشيكاغو (دار الثقافة للطباعة والنشر ـ القاهرة).
(١٢٢) أبو القاسم عبد الكريم بن هوازن القشيري (الرسالة القشيرية).
(١٢٣) د. عاطف جودة نصر المصدر السابق.
(١٢٤) نسبة إلى ألبير كامو الكاتب الفرنسي المعروف.
(١٢٥) د. زكي مبارك: المصدر المذكور.
(١٢٦) استشهاد بالآي الكريم: ﴿وما أُبرِّىءُ نفسي، إنَّ النفس لأمَّارةٌ بالسُّوء إلَّا ما رَحِمَ ربِّي﴾ يوسف ـ ٥٢.
(١٢٧) أطلانطس: مدينة السعادة التي غمرتها مياه المحيطات، وهي خيالية.
(١٢٨) صوَّح: التصوح: تناثر الشعر، والفينان وصف حسن للشعر الطويل يقال: شعر فينان: له أفنان (وغصن فينان كثير الأغصان). ويُختلىٰ من اختلاه بمعنى جزَّه أو نزعه.
(١٢٩) اليَقَق شديد البياض، والمنصل: السيف.
(١٣٠) موئلا: الموئل المرجع (عن الديوان).
(١٣١) الاقتباس من شعر الشريف الرضي إذ قال:

ولم يــلبــثــن غــربــان الــليــالي
نــعــيــقــاً أن أطــرن غــراب راســي

(١٣٢) أسجحي: أحسني.
(١٣٣) الصادرة: أي المخطئة من السهام.
(١٣٤) المرأة بعامة، أي غالباً وليس كلاً.